آمال... حبٌّ يبحث عن وطن

(رواية)

تأليف

هدى درويش

الطبعة الأولى

1434هـ/ 2013م

دار الحكمة
طباعة - نشر - توزيع

ج.م.ع – القاهرة – زهراء مدينة نصر – المرحلة الثانية

ص.ب: 10 – الرمز البريدي: 11528

تليفون وفاكس: 24106748 – م: 01000135406

www.darelhekma.net

hassanelsherif@darelhekma.net

بسم الله الرحمن الرحيم

كل شيء في الحياة يزول ويفنى إلا ثلاثة :

"الحب والشعر والجمال"

فصدى الثورة لا يقهر، وصوت الشاعر لا

يموت والتاريخ لا يبنى على يد الجلادين . . .

هدى درويش

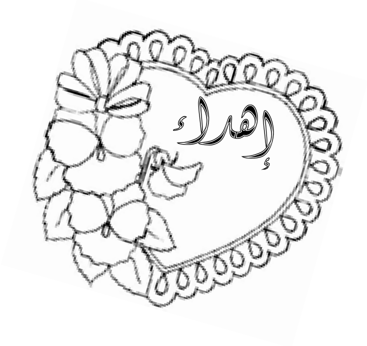

إلى.... كل من تستجلب كلماتي خواطرهم

إلى.... جبران خليل جبران... أديبا ومفكرا

إلى.... رجال صنعوا تاريخ موطني

إلى.... زعماء أصبحوا قهرا يرحلون...

إلى.... صديق عروبتي العابر من مدينة الخليل الفلسطينية

أرفع هذه الكلمات...

كلمة من القلب...

في دنيا انقلبت فيها آية الزمن، انقلبت فيها موازين الحقيقة وكادت أن تغيب فيها مقاييس الأصالة والثبوت...تقزم فيها فكر الإنسان، وضاعت فيها هوية العروبة...في دنيا لم يعد فيها مكان للأخيار حين أصبح الحق وحيدا دون أنصار، وأصبحت الحياة كئيبة...فما لتلك المدينة أن تفعل ساعة أن يغتال الزمن إنسانها...؟ما لها أن تفعل حين يصبح نور الشمس فيها ضائعا دون أمل، وزرقة السماء بعيدة عنها...فهل لها من الوجود محل؟ مدينة تكتب لأجلها الشجون وتبكي لأجلها الأحزان... مدينة هجرها كل الخلان، ولم يبق لها من ذكريات التاريخ شيء سوى أنها أقدم من وجود الإنسان... مدينة باركها الأنبياء وصعدوا منها إلى قلب السماء...مدينة ذبحها سكين العروبة واحتفظتْ بالوفاء...من مدن الشرق الأوسط حيث صنعت حولها أرواح الآلهة أسوارا من المجد... حصونا من الصمود...منحوها طهر الياسمين رغما عن غدر الوجود...مدينة بكت حتى كره البكاء بكاءها... تألمت، تعذبت، صرخت من واد عميق... عرفت كل معاني الآه...و لكنها بقيت في صدور شهدائها كما يجب أن تكون... في قصائد شعرائها كما يجب أن تكون... أصبحت كما كانت منذ ألوف السنين اسمها فلسطين...

هذه الأرض المحتلة التي يقف العالم أمامها مرة **متفرجا ملاحظا، ومرة أخرى بمواقف العداء...هذه الأرض السخية الكريمة...جادت على كل الدنيا**

بروافد من العطاء، أفلا تردون لها الجميل...؟ أيتها العروبة أين أنت من كل هذا الضجر...؟

ياسمين القدس يبكي ويبحث عنك...؟وجد لك في كل زهرة معنى، وفي كل نسمة عطر معنى، ولكنه لم يجدك...فأين أنتِ... أنسيتِ كيف صنع التاريخ شموخك من نصر حطين...؟أنسيتِ كيف ناضل لأجلك في فلسطين صلاح الدين...؟ أنسيتِ كيف صنعت فلسطين لك ألف ديوان وديوان، وأرسلت إليك شكواها في قصائد درويش وطوقان...؟أنسيتِ كيف واصل الجهاد من بعد فرسان السيف فرسان الحجارة...؟ألا تسمعين صراخهم... اليوم قتلوا واغتصبوا ويتّمتهم مدافع اليهود...اليوم سقطوا أشلاء في شوارع المدينة، وجعلوا الألوف منهم فدية للعام الجديد فهل قلب العروبة من حديد...؟ أيها العام الجديد من بعد ستين عام، عدت على فلسطين بنفس الشجون ونفس الوعيد...آه فكم أصبح وجعهم شديد... أيتها العروبة دعي عنك التنديد وابحثي عن تلك الأيادي التي جمدّها الصقيع، وأرهقتها معاني الحرية، واستيقظي لأنهم يحفرون رموس الأمل وأعداء الحياة لم يتركوا لكِ من الإعراب محل...؟

أيتها العروبة هاجري مع طيور تلك المدينة، وامسحي عنها وكوف الشجن، وازحفي مع شهدائها، صارعي الموت وتحدي الفناء... ضعي جبينك على قلوب الأمهات، واسمعي صراخ الوجع وعذاب الأنين... اسمعي تنهيدة اليأس وعسر الحنين...تابعي شعاع الأمل مصحوب بما يندى له الجبين، وانظري كيف أن الموت أصبح رفيق عُمْرٍ في تلك المدينة...طمئنينا عن شوارع خالية قد

عمّ فيها الموت، وعن أشجار باكية عصافيرها من دون صوت...أخبرينا عن يد دُفنت بحجارتها...عن أزقة أرهقها عذاب المدينة...عن حجارة احتلتها السكينة...عن صمود شعب أصبح لتاريخنا حلية وزينة... عن كل ما في تلك المدينة من بسمة وبكاء... من نخوة وسلام ودماء... وازرعي نفسك من جديد مع أغصان الزيتون وتأملي كم هو محزن منظر المدينة... الشرقية العربية حينما تصبح شجونها بهية من كثرتها، ودماؤها زكية من وفرتها، ودموعها أليمة من صمت العروبة...؟

تلك المدينة التي بنى فيها القدامى أول المعابد وأعرق المساجد... فما هي اليوم سوى بركة من الدماء والدموع، وهي التي شهدت يوما إسراء محمد وميلاد اليسوع...

أيتها العروبة اذهبي إليها...سافري وابلغيها ألف تحية وتحية...قولي لها قلوبنا متعبة من وهن المشاعر... لقد أصبح لها في الوجود إخلاص كل شاعر...قولي لها سامحينا ألزمناكِ معركة المخاطر...قولي لها تاريخنا من دونك أصبح حائر،سامحينا يا زينة المدائن... يا ارض الرجال البواسل ابلغيها سلاماتنا وكل الرسائل... رسائل كتبت بالدمع والحبر...رسائل ما لنا سواها لأجل فلسطين...

أيتها العروبة توسلي لتلك المدينة أن تمنحك من عمق أحزانها بعض الدماء،لترتوي منها علها تحيي فيك بعض معاني الوفاء، واشهدي معها كم هو عسير أن تختلط أصوات المآذن بجمر المدافع... وأن تكون فرحة العيد ممزوجة بذكرى المأساة وحاولي أن تقدمي بعض المواساة فجروح المدينة عميقة عميقة...

"أيها المارّون بين الكلمات العابرة" هكذا قال يوما عن أعداء الشمس صوت من شعراء المدينة... وهكذا شهد التاريخ عنهم بأن لا محل لهم بين أحجارها...فهذه المدينة من حق شهدائها،من حق أيتامها،من حق من قرّروا البقاء فيها حتى المنية ومن حق من هُجّروا منها ونزفوا بحنينهم لها وكوفا زكية،ليس لأمواتهم مكان بين شهداء المدينة،ليس لانحلالهم محل بين عاشقيها... فهم عرب يعشقون على نار الفحم ويودّعون حبيباتهم وهم مقبلون على ساحة الوغى...فلم يبقَ للدخلاء من معاني الوجود سوى الرحيل والاندثار...

أيتها العروبة...عانقي بحرارة كل نساء المدينة وقولي لهن أرحامهن قد أنجبت رموز الأمة... زغردي مع كل فتاة على حبيبها، ممن استشهدوا في قداسة النضال، زغردي مع كل أم على ابنها ممن سقطوا فحولا في قلب المعركة...أيتها العروبة استمري...إيّاك أن تتركي تلك المدينة وحيدة، إيّاك أن تصنعي جراحها أنتِ والتاريخ...آزريها فهي مشتاقة لعذوبة الهوية...صاحبيها فقد تعبتْ من مصادقة المنية،شاركيها أحلام البقاء ومعاني الضجر فحواريها متعبة من ضرب القدر...

مدينة الأحزان

من هذه القمة الشامخة، حيث يقفُ القدر حافيا ويُبنى التاريخ على أيادي الجلادين، وحيث تكون السماء زرقاء لكنها بعيدة، وحين تلقي نظرة على سفح ذلك الجبل، تجد أن الياسمين وبكل ألوانه أصبح احمرا، ورغم جماله يبدو كئيبا، وبكل حريته أصبح مطوقا، إلى جانبه أشواك فتية أصبحت تنافس كبرياءه وتحتل ترابه...

هنالك في الطرف الثاني مجموعة من الأحجار البالية، رموز لمقابر قديمة تآكلت رموسها من قسوة الطبيعة، وأصبحت بمستوى التراب... تواضع ارتفاعها من بعد ما كان عاليا،إنها تخضع لقوانين الأرض...؟ إنسانها أصبح يتنازل عن كبرياء رفاته تحت التراب فما أتعس المرء الذي يعيش يوميات حياته مهزوما، ويكمل مشوار الحياة الأخرى بائسا من حسرته على أيام عسيرة يسايرها الخَلف من بعده.

هنالك في الأفق الكئيب لو أبعدت النظر، بلدة صغيرة تكابد هبوط الأودية وصعود الجبال، تصرخ بشجونها إلى رب السماء، حين يهاجمها الريح بعنفوان، مكتوب على مدخلها مدينة الشمس ومرفوع على أبوابها سيف العروبة... مدينة تحمل كلاسيكية القدم وأصالة الحضارة، تحمل كل معاني الزمن الجميل، في دروبها رسالات من الحب في زمن الحرب... مدينة صدرها رحب بشوارعها الضيّقة، وقلبها جميل ساذج كأطفال الحجارة ... مدينة من دون كلام تقول

للعروبة عتابها ... مدينة لا تخون أحبابها، وفية كالأنثى الشرقية... عذبة حين تروي حكاياتها، من مدن الشرق الأوسط...

بقدر ما هي جميلة، غريبة الطباع ولكنه كان من صُنع الأيام أن نلتقي، وحين اسألها عن العنوان تقول: «هنالك على طرفي هذا النهر وُلدت من قبل ميلاد العروبة، وإلى جانب هذه الأشجار أوجدني التاريخ قبل وجود الإنسان، وأنا الآن في غروب مع الأحزان.

سوف نرقد سويا مع الشمس، حين يغتالها احمرار الأصيل وحين أصاحب هذه المياه على طول الوادي التي نشفت من جراح الزمن ... فانا الآن وحيدة عنواني غريب ومجهول، ولكنه عريق وأصيل حتى تلك المياه تركتني، هجرتني كما شدّ الرحال الأهالي التعساء إلى نهر الأردن...؟فآه من غدر الأيام وآه من ليل التاريخ ...؟».

منازلها كانت قرميدية بسيطة، وجدرانها تبدي آثار العذاب من قصف وحجارة، في دروبها الصغيرة الملتوية أطفال يلعبون دور المجاهدين فيحملون ألواحا أو شظايا يصوبونها وكأنها رشاش أو بندقية، ثم يصدرون الرصاص بأفواههم الصغيرة، ومنهم من كان يلعب دور الصهيوني فيقول المجاهدون الفتيان لبعضهم: "احذر إن الدبابة قادمة" وإذا به طفل يمسك بيديه طرفي إناء كبير 'كان مخصصا لرمي الفضلات في زاوية الشارع ... ؟هو الدبابة الإسرائيلية في نظرهم فلكم هم حكماء أيها الزمن ...؟ أ وَ هم احكم من التاريخ؟ وأدرى منه بحقيقة عدوهم؟ يرفضون الأكذوبة التي عظمها الأقوياء ويحاربون في بقايا

الأيام مزبلة تحمل سمات القوة والحداثة ... آه أيتها الحرب لقد صنعت حكماء عصرٍ من أطفال المدينة فما بالك يا ترى برجالها ...؟

تخرج من ذلك المنزل فتاة في الربيع من عمرها سمراء فلسطينية بسمرة الرمل والوادي، كانت بهية العينين بجمال كئيب من مدينة الأحزان، تمثلت وكأنها قطعة مرمر من جمال متحف فلسطيني أصيل...

دنوت منها وألقيت التحية فرحبت بي وكانت جوادة معي بخصال المرأة العربية... اسمها آمال جلسنا سوية، وبدأت تحدثني عن الأحوال العسيرة التي تعيشها المدينة ... فكان اليأس يغطي حماسها ومن حين لآخر تتنهد تنهيدة من عمق النفس الحزين.ثم تصمت حائرة في أمرها، لتلقي من جديد نظرة على ذلك الجبل البعيد، وكأنها تنتظر قدوم احد ما ولكنها لم تبح لي بشيء...

إلى معبد الانتظار

توسط الليل في مسيرته الغامضة وطوّق كل أجنحة الضياء أصبح قائدا على مصير كل الآمال وإذا به احد يفتح باب المنزل ويخرج، في جو لم يكن فيه سوى الصمت رفيقا، وخرير بعض المياه

لبست ثوبي وغادرتُ المنزل متتبعة صوت هذه المشية النحيلة، وإذا بها آمال هنالك تمشي بخوف وذعر وتلتفتُ وراءها خشية أن يراها احد... خرجتْ عن سور المدينة واتجهتْ نحو ذلك الجبل، لم أرَ من جلبابها الأسود سوى قدميها الجميلتين المتعبتين من قسوة الحجارة وصلابة الأرض ... اجتازت تلك المقبرة القديمة، وعلى المنعرج الأيمن لسفح الجبل أحجار عملاقة، أبلاها القدم واحتلتها السكينة ... كان ديكورها يدل على أنها معبد قديم مهجور ومنسي... وقفتْ إلى جانب احد أحجاره، وإذا به نسيم عليل شمالي وكأنه يبلغ تحيات الحب والحنين من جنوب لبنان إلى أرض فلسطين...

وقفت آمال في وسط المعبد وقفة يكون الصمت أبلغ من وصفها، وقفة يلبسها الحنين وتغطيها الدموع، حينها فقط أدركتُ أن حال آمال والمدينة سواء، كلاهما كانت وردة زكية أو امرأة حسناء شجية، كانت ضحكتها تملأ الدنيا وتزيّن الزمن وأصبحت الآن كئيبة كصوت الموت في أعماق الأرض، حينما يكون مدفونا لا يسمعه احد...

أصبحت الحسناء تستنشق ذلك النسيم بطريقة غريبة ومعبرة، وتصعد بعينيها الحوراوتين إلى قلب السماء بأدعية من قلبها لا يمكن لأحد سماعها ولكنها حتما سوف تصل ما دام أن الربّ موجود متربع على عرشه... ما دام أنه ينجد الغريق وينصف المظلوم، سيستقبل دموع آمال ودموع فلسطين كما فتح يوم الإسراء أبواب السماوات لأطهر الأنبياء.

بعض الخطوات أوصلتني إليها، اقتربتُ منها فوجدتها تبكي بكاء الانتظار، بكاء الأمل الطويل وأحيانا المستحيل وأنشدت قائلة وصوت الوكوف يخالط صوتها الدافئ: «يا بيروت هلا أرسلت النسيم، إنني انتظره في كل ليلة، انتظر رسالتك من قلب المعاناة بفارغ صبري الذي نفذ انتظرك في هذا الظلام أن تعطفي وتسجحي على القلوب المقهورة من فراق الهوى، عذاب الجوى ورصاص الحرب، من النفوس التي ذاقت ذرعا برماد السماء ورماد الأرض وأحيانا كثيرة رماد المشاعر»، وسقطت على ركبتيها وصوت البكاء المكبوت يكاد يخنقها...

انتصف الليل وأصبح كل شيء كئيب من حولنا وكانت آمال ضحية رقيقة حساسة من ضحايا القدر كانت كشعلة النور البيضاء حينما توقعها الأيام بين شبحين هائلين «الحب والحرب، البهجة والكرب، البقاء والفناء» كلاهما نقيض للآخر فالحب يصرخ باكيا متفجعا، والحرب تضحك ساخرة منه، كلما حاول زرع حياة جديدة في نفس الأمل، شددّت عليه وغلغلت أظافرها في عنقه.

بدأت الدموع تنزف كدماء جراح عميقة، وأنا أرى تلك الوقفة ... وقفة الحرمان.

كانت الدنيا كلها فراغ، لم اعد أرى سوى آمال والجبل ،و بينهما الكثير من ذكريات الأسى والمعاناة والحنين إلى جمال الماضي ورونقه. كانت تفصلني بعض القامات عن آمال وتفصلها عن الجبل ساحة معركة من اللانهاية ... معركة الخير والشر ...معركة الحب والحرب.

و بعد كل هذا الضجر رجعتُ معها إلى المنزل وكنا نبكي سوية، كانت إلى جانبي ولكنني أحسستُ ببعدي عنها، بعدي عن القضية، وإذا به صوت آذان الفجر ... صلينا معا ثم انعزلت الحسناء في ركن من أركان الغرفة وتوجهت بدعاء إلى الإله الجليل:

«اسجح بنا... ترأف يا رب السماء، فنحن طيور فتية ... شدّد أجنحتنا المكسورة وامسح عنا دمعة عالقة بين الأهداب والأجفان، اروِ صدورنا رحمة تزرع فينا بساتين الجَلَد، تصبرّنا عن غدر الزمان وعن غدر العروبة ...؟ أيها الإله ما لنا سواك نرفع له شكوانا، ونبعث له رسالاتنا غير المكتوبة، لقد دمرتنا الحرب، دمرت المدينة وحرقت القلوب، نهشت صدورنا وضعضعت أحلامنا، أذاقتنا المُر بكل ألوانه واليأس بكل صوره... إنني انتظر فحياتنا غريبة تساوي البكاء والانتظار، ندعوك وننتظر أن تجيب الدعاء ... نموت أشلاء كل يوم وننتظر في العروبة أن يستفيق الوفاء، يأتينا الليل ويروح عنا النهار وننتظر بزوغ فجر يمنحنا فرصة لتغيير أنفسنا... نحن أمة كتب عليها الانتظار ... يطير الحب بمشاعرنا بعيدا كحمامات بيضاء في سماء المُثُل وننتظر بخوف لحظة البيْن ودمع الفراق ... نعيش كل نهار بآمالنا النحيلة ونخاف غروب الشمس وظل الأصيل، نحلم بأن نصنع من مدينتنا جيلا بعد جيل، أجمل بقعة على وجه

الأرض ... بقعة يغطيها الجمال وتلبسها الحضارة، وتشد أوتادها مقاييس القدم والثبوت وعندما ندير وجهنا نحوها، تظهر المدينة كامرأة حزينة محرومة أو كأرملة شاخ عليها الزمن، وأرهقتْ رهانات الحرب جسدها الجميل أو كشجرة بائسة لوى الزمن عنقها، وحاول زمهرير الريح أن يجتث عروقها...

يا رب السماء ذِقنا ذرعا بشجوننا وكرهت منّا الأحزان، وبدلت دنيا البؤساء ابتساماتنا دموعا أصبح صداها يخترق الوجدان ويختلج الصدور كعاصفة هوجاء...

يا رب السماء امنحنا من جمالك الطاهر شيئا نبدل به خطايانا وآثامنا علّنا نبلغ المراد المستحيل...»

يحل علينا الضياء من جديد، فتلبس آمال كيان الفتاة العادية وتعود كما كانت في النهار السابق تزرع على وجهها ابتسامة الصمت والكبت وتعيش حياة عادية، عندها أدركت أن المرء في تلك المدينة يتبدل بين حياة الليل والنهار ... فحياة النهار مليئة بالضجيج والعنف وتشييع الجنازات وحياة الليل عالم آخر، تأخذك فيه الأحزان إلى ما وراء الأفق ... تمكنك من أن تستمد روح الأمل من مقابر اليأس، وأن تمتص رحيق الحرية من أشواك السلام، وأن تزرع بذور المستقبل في أراضي الماضي القديم وتعلمّك الانتظار، بل تعلمك كل معاني الصبر الجميل، فالحياة في تلك المدينة وبكل بساطة هي صراع بين الذات والنفس، عندما تحاول كل منهما السيطرة على الأخرى أو كصراع الصباح والمساء عندما يحاول الليل أن يستمر طويلا...

وجع من ليالي الانتظار

حلّت ليلة أخرى على النفوس المتعبة وأحجار المدينة المقهورة... وجدّدت على تلك القلوب العاشقة مأساة جديدة.

المدينة وضواحيها تحتلها السكينة، ويخيم عليها صمت رهيب، حينما يهاجم الليل بأشباحه المرعبة ملائكة المدينة ويتغلب عليها بظلامه الهائل، فتتوقف الأشجار عن صفيق أوراقها، ويتوقف الوادي عن صوت خرير مياهه المبحوح، وكل الأصوات تنكتم ولا يمزق ذلك السكون الساري في هدوء الليل سوى شهقات بكاء آمال على ذكريات الماضي الحزين وربما خوف من جنون المستقبل القريب ...

ها هي ذي تمشي بذعر نحو نفس المعبد تجلس فيه صامتة، لا حركة في جسدها سوى نزول الدمعة من عينيها الجميلتين على وجهها الذي أبلى الحزن جماله، وشاخت عليه رهانات الحياة.

و الصعب في بكاء العين أنها من كثرة آلامها تبكي بدمعتين اثنتين تنافس إحداهما الأخرى في التنبؤ بتعاسة الحاضر والخوف مما تدّسه الأيام في طيّاتها الرقيقة ... كم هو عسير إحساس آمال ...؟ الإحساس بدموع الحرمان حينما تندفع روافدا إلى بحر الوجنة الوردية، التي خدش القدر أحلامها وضعضعت الأيام أمانيها وأصبحت ضحية للحنين...

تجلس الحسناء جلستها المميزة وتدخل بكيانها الهادئ في كون الانتظار، وتبدأ في سرد ثنايا حكاياتها... حقيقة الوهم أم وهم الحقيقة ...؟ أيتها النفس تجلدي على ما قدّمته لك الأيام وجاهديها في نيل أحلامك والظفر بمرادك، ولا تستسلمي أبدا للقدر حين يكون رذيلا... ضيق الأفق، منقطع السبيل وتعلمي الانتظار طويلا في هذا المكان، الذي سوف يصبح عبرة لكل من يأتي ولكل من يقرأ قصص الحب والثورة... انظري إلى مقابر الشهداء حينما تضيقي ذرعا بما في جعبتك من ألام الفراق، فأنت يا نفسي أحسن بكثير ممن قطعوا الأمل واستلموا أحباءهم نعوشا كئيبة، أو دفنوهم بأيديهم في أعماق هذه الأرض الصامتة...

أنت أفضل بكثير لأن شعاع الأمل فيك لا زال حيا يُرزق، ولأنك أكثر من ذلك تعلمت الانتظار، فعندما تتمخض الحرب على فراش الحب الأزرق، فإنها لا تلد سوى مولودا وحيدا هو الانتظار، والذي غالبا ما يكون خالدا أبديا في حواري الشوق وفي مدن الأحزان...

أيتها النفس المتعبة انظري كم أنت عظيمة لأنك عايشتِ الحب هنا في ارض محتلة ومدينة منهارة الأعصاب، عديمة الآمال ولأنك عندما تبكين لا تبكين وحدكِ بل تتقاسم معك الطيور البريئة وكوف الشجن، وتأخذها معها ذكرى إلى حيث تهاجر، وتصنع من خامات شهيقها حبا جميلا في أرض خضراء، تعانقها الشمس ويطير فيها الحب طليقا حر البسمات... أنت عظيمة عظمة هذا الجبل الذي يبني شموخ قمته من مقابر الشهداء الموجودة على سفحه... والذي يصنع في علوه الصاعد تمثالا للحب والحرية من حجر المدينة، ملصوق بدم الشهداء وتراب الرموس ... أوَلا تدركين حجم كبريائك وأنت إن بكيت

بكت معك غيوم السماء الرمادية ...؟ ها هو ذا رذاذ المطر ينزل عليك ليبرّد حرارة دموعك المأساوية، ويطفئ براكين صدرك ولهيب أعماقك التي قادتها حروب الظلم والغدر والهوان... أنت جميلة رغم أن الأحزان تحاول تشويه جمالك لأن جمال الياسمين لا يفنى حين تصّلي وريقاته في معبد الأيام، فاصبري أيتها الذات الحزينة واجعلي أوجاعك صرخات كبتٍ في وجدان كئيب، ولا تذكري إلا صفاء الحب مهما بلغت قسوة الدهر وطول الانتظار.

أتعبتني الأشواق

أصبحت حكاية هذه الحسناء شبيهة بخرافات ألف ليلة وليلة... أصبحتْ تسمو إلى عالم المثالية والحب المقدس.

ليلة أخرى رماها القدر من أحضان الكون على فضاء المدينة وشجونها، ولا زالت النفوس المتعبة تعاني من هذا الظلام، ولا زال الشوق في نفس آمال كبيرا، والحزن الرهيب يعزف على أوتار الليالي سيمفونية من العذاب والأنين، ويزرع في الصدور بساتين من الورود والأشواك... أصبح شامخا كالجبل الصامد في وجه ريح عنيفة، جميلا، راقيا كجثمان ملك في تابوت العصور ونعش التاريخ ... أصبح لا مثيل ولا تفسير له...

آمال امرأة تحمل في سِماتها كل معاني الجمال الإلهي وكل صور حسن الطبيعة الجذابة، كل ما تحمله الحياة من استمرارية وتفاؤل وبسمة عريضة الخطوط، لاستقبال فجر يوم جديد بكل مفاجأته مهما كانت ... بهجة أو مأساة، ولكن في قلب هذه الحياة قطعة حجر ميتة مكوّنة من رفات الماضي واستحالة المستقبل ... قطعة حجر حكمتْ الأيام أن تكون تائهة دون موطن ويائسة دون أمل، فما أقسى حكمها الذي جعل من الحب شيخا ينتظر الموت بخوف وذعر، بعد أن كان شابا تحمل ابتسامته معنى الحياة على كفّ الزمن الجميل. لقد صنعت الحرب منه ظاهرة غريبة، تحمل حزن الطبيعة في اصفرار أوراقها وخريف أيامها الذي يبتسم حالما بربيع قريب .

آمال اليوم على غير عادتها تقصد معبد الأحزان مبّكرة عن موعدها بساعات معدودة، لأن الشوق اليوم قد أصبح هائلا وكبيرا فوق استطاعة صدرها النحيف، ولأن الحرب خرّبت ما خرّبتْ، ودمّرتْ في مدينة الحب حواري الأمل وحصون السلام، وزرعتْ السكينة على ضفاف الوادي وألزمتْ آمال بصمت المشاعر...

هذه الفتاة العاشقة والتي كرهتْ أحجار المعبد البالية جلساتها الحزينة، تقف اليوم في نفس الموقف وكأنها الليلة الأولى وكأنها نفس الدموع التي تنزل في كل مرة...

هذه الفتاة تصارع وحيدة أمواج الحياة في بحر عميق خطير، امتزج فيه الحب بالحرب واختلط في عمقه هدير الموجات مع أنين الدموع، وانطفأت على شاطئه منارة الغد الأفضل...

آمال تبكي وتبكي خائفة من خبايا الفجر القادم، تواجه ذلك النسيم بحرارة بركان زاد انفجاره لهيبا ونيرانا، وتطالبُ بيروت بإرسال الأمانة التي تطلبها في كل ليلة... وما أدراكِ يا آمال ؟! لا تعاتبي بيروت أبدا...؟ ربما هي متعبة أكثر منكِ من ضرب القدر، بيروت جميلة الجميلات... عروس البحر وسيّدة التلال ... شقراء الأرز، بهية المظهر، بيروت أيضا تبكي وترثي الجنوب الغالي، وترثي براعم الطفولة التي غابتْ عن ساحاتها الخضراء، ومن سقطوا على الأرض التي ارتوتْ من وكوفهم في الحياة، وشربت حبات ترابها من أقداح دمائهم بعد أن ضربتْ يد الأعداء في صدورهم، ومزقتْ كل أوتار تلك القيثارة الفينيقية السمراء التي عزفت لحن الحب والثورة، وجادت على

مسامع الدنيا بقصائد موزونة راقية اقتبستها من ثقافة مدينة تكتبُ وتطبعُ وتقرأُ...

تجلس آمال حائرة في دوامة الأيام، تفكر في حالتها التي تشبه كثيرا بيروت ثم تستدير، فلا ترى بعينيها الجميلتين سوى دمار تلك المدينة التي صنع منها العدو ثغرة التاريخ ومبدأ الأكذوبة، ولكنها تحتفظ بابتساماتها رغما عن انف الليل ورغما عن جراح الزمن...

أحلامي الورقية

في هذا الصباح الغريب، والذي تحاول فيه آمال أن تصنع من دموع لياليها الكئيبة، تنهيدة فجر عذبة ترقى إلى سماء الأفق الجميل، تحمل في يديها طائرة ورقية مزركشة الألوان، متصل بها حبل طويل الأمد مثلما يطول انتظار القلوب العاشقة على أبواب الهوى...

تخرج إلى فناء منزلها ... إلى جانب ذلك القرميد الأحمر، الذي يحتضن سقوف الغرف البالية، وتطلق سراح تلك الأوراق فتسمو وترتفع بعيدا، في سماء زرقاء جميلة حالمة بالمستقبل الواعد.

تبدأ في تحريكها يمينا وشمالا وكأنها الأحلام حين تلوح أيادي البائسين إلى عطش السراب، يحسبون في لمعته ماء يروي العطش، ولكنه سوى وهم يعلّم القلوب العطشى معاني الصبر ...

وإذا به دخان يعكر صفو السماء ويحوّل زرقتها الصافية رمادا، مختلطا بمعاني الظلم وحكم الأقوياء، وفجأة تصبح الطائرات الإسرائيلية تحوم على المدينة لوقت طويل، يزرع صوتها الرعب في نفوس الأبرياء العزل، يبُلغ رسالة من زعماء القوة بأن أشباحهم قادمة لتغيير مسرى الحياة وتحويل معناها إلى الموت البطيء...

و فجأة أصبحت شوارع المدينة خالية ... لا احد، لا صوت، ولا حركة، الكل ينتظر الرسالة بذعر وخوف شديدين.

لا يوجد كائن سوى آمال حائرة بين الأرض والسماء، الرعب والدموع في عينيها وطائرتها الورقية وحيدة تصارع بحسرة وكبت كل طائرات العدو... ألوانها الجميلة اتسخت برماد الحرب وذعر القصف، وأصبح ورقها تائها في جوف النهاية، وأصبح لا معنى لوجودها في ذلك العالم كعصفور برئ ساذج بلا جناحين، يطير في اسوداد سماء رمادية ملبدة بالغيوم القاتمة، ثم يجتاحها ذلك الشعور العسير بالخوف والوحدة وأنت ترى الموت عملاقا يدخل من أبواب المدينة أمام كل العالم، حاملا تحت طيات كسائه الأسود عنفوان الريح ودماء الحروب، ويغطي منازل المدينة بلباسه العريض، فيزرع في بساتين ياسمينها زمهرير العواطف وفي ألحان بلابلها شر الظلم ومرارة الهزيمة، ويكسر كل سبل السلام ويضحك ساخرا...

بعد دهر من الأنين والانتظار تكلمت الحرب وهزّ صراخها الظالم كيان المدينة الفلسطينية الهادئة ... مات من الأهالي العزّل من مات، وأصبح الأطفال تائهين في شوارع البلدة يعانون اليتم والحسرة واليأس أما آمال فالتزمت زاوية مظلمة في غرفة نومها طوال وقت القصف والدموع تنزل من عينيها، وتزحف الأحزان من حولها كما يزحف القدر حين يكون ضعيفا... كانت تفكر في شيء ما جاد وحقيقي... وبعدها لبست ثوبها وغادرت المنزل إلى تلفون عمومي في آخر الشارع، تكلمتْ مع الأستاذ جبران وقالت له بأنها موافقة على المشروع الذي عُرض عليها وكانت تحاول الكلام بطريقة عادية رغم أن الدموع تحبس أنفاسها وتكتم خامة صوتها النائم ... ثم رجعت إلى منزلها الصغير وأخذت تحضر أغراضها كأنها مسافرة إلى بلد ما... حزمت الفتاة أمتعتها مقررة الرحيل

في الغد الباكر...

ثم بدأت تتجول في أرجاء بيتها وكأنها تريد اكتشافه لأول مرة وأخذت تقبل حيطانه وتضع من ترابه على وجهها الأسمر ما تضع، ثم تحمل بعضه بيديها الجميلتين وتقوم باستنشاقه وكأنه عطر فلسطيني، مزجت مكوناته كيمياء الحرب والثورة وزيّنته بنكهة الحب الحزين...

أخذت آمال تحتضن حيطان البيت بحرارة أشبه بوجع الفراق فتركت آثار الدموع ... دموع الوداع والبيْن وبداية سنين الغربة، فما أسعد المرء حين ينتابه شعور العشق الذي لا مثيل له...؟ وما أتعس الحب خلال مشوار البحث عن الوطن ...؟

نزلت ظلمات الليل وقد كان رهيبا في هذه المرة، وآمال كانت تبدو كالحسناء في وسط جماهير من الأحزان التي تنظر إليها وتستعجب من أوجاعها... كانت تفكر في زيارة ذلك المعبد ولو لآخر مرة لكنّها ترددت، ربما ارتأت أن وداعه للمرة الأخيرة يعني وداع الحب والانسلاخ من ذكرى الماضي القديم، ولكنها تريد لذلك الحب أن يعيش ولو كان وهْمًا... أن يعيش كذلك الفتى النبيل في عالم الأحلام، لذلك كانت تفضل الانتظار الذي يضع قدَم حبها على طريق اللانهاية، فبعد أن ذرفتْ دموعا تحت لهيب القصف، رفضت أن تتبعها دموع أخرى لأجل الوداع الأخير...

أمضتْ ليلتها الفلسطينية الأخيرة في بحر من أحلام اليقظة الوهمية وهي تروح كحبة الصدف اللامعة بين مد وجزر البحار ...

غادرت منتصف هذه الليلة منزلها نحو مزار آخر... مقبرة الشهداء حيث وقفت وقفة التاريخ اليائس أمام قبر والدها ياسر وأمها فدوى اللذين استشهدا في صفوف النضال ... قبّلت لوح قبر والدتها وقالت:

" أمّاه لقد أتعبتني الحياة ... حكايتي مع الحزن لا تنتهي فهو لعبتي منذ طفولتي، كانت أول دمعة أهدتها الحرب لي، وفاة صديقتي ماجدة التي داستها دبابة اليهود أمام بيتنا العتيق وحزنتُ من بعد ذلك حزنا عميقا عمق البحار، ولكن الدمعة الأغلى كانت دمعة غيابك عني التي أخذتْ من عمر شبابي أحلى أيامه وأبهج لياليه، كان وجودك أنت وأبي دافعا لي للبقاء هنا وعندما تضيق بي أحزاني تطردني إلى مفارق الأيام، التي تأتي بي إلى أحضانك الدافئة واليوم أصبحت الأحزان تطردني إلى ارض بعيدة عن موطني... غيّرتْ إقامتي من مدن الأحزان ونهج السكينة، وملأت بدخانها هواء صدري وبدّلت ابتساماتي دموعا وآهات..."ثم تمشي بعض الخطوات:

" أبي ... أرضنا الخضراء التي زرعتَها زيتونا، زرعتها طائرات اليهود قنابل فسفورية أحرقت فيها الأخضر واليابس وشرّدت بلابلها التي كانت تؤنس وحشتها بأطيب الألحان... "

إلى جانب تلك القبور ضريح أخيها الفدائي احمد الذي استشهد من سنة ونصف بعمر لا يتجاوز الستة عشر عام، فاتجهت إليه آمال وهي تستكمل كلامها: " أنت أكثر من اشتقتُ إليهم لأننا كنا دائما معا، نضحك ونبكي ونتخاصم، ثم تصالحُنا صلة رحمنا فنركض نحو ذلك الخبز الذي صنعته أمك فدوى من قمح أرضنا، وتستهوينا الدعابات واللعب الجميلة... أتذكر آخر

لعبةٍ تركتها لي، كانت تلك الطائرة الورقية التي صنعناها معا من أوراق الدفاتر المدرسية وألوان الرسم البهية وكنا نبتسم، البارحة تاهت مني ... أفضل لك بكثير انّكَ لم ترَ كيف كانت ضعيفةً تقاوم تلك الطائرات وأهونُ على نفسك أنك لم تحضر موقفها كيف تحطمتْ وتطايرتْ قصاصاتٍ صغيرةٍ، ضاعت ألوانها في وسط الدخان وعتمة الليل، وضاع معها الأمل في البقاء فصاحبتها معاني الوحدة وأرهقتها معاني الشقاء، لذلك قررتُ الرحيل لأنني أحلم بغد أفضل مليء بالأمان، يعود فيه أولادي أو أحفادي إلى هنا... يزورون قبوركم ويستصلحون الأرض التي دمّرَها اليهود ويطردون طيور الشؤم الغريبة، ويرَبوّن في أقفاص المدينة عندليبا راقيا يعزف سيمفونية الحرية والسلام، ويفرحون معا بأغنية الأيام، ويصلّون معا في مسجد يحتضن آذانه أجراس الكنائس المقدسّة، يصنعون الكثير من طائرات الورق إكراما لنا، فيملئون الأفق الكئيب بألوانها ويغيّرون كروية الأرض...؟ " ثم تنهض وكسائها مغطى بالغبار وهي تسحب قاماتها الحزينة نحو بيتها من جديد ...

تفصلها عن الفجر ساعات قليلة، يبدأ من بعدها مشوار الغربة المليء بالأحلام التي لن يحدد مصيرها سوى الأيام القادمة بين خبايا الزمن.

وداعا يا فلسطين

تصلي الفتاة ركعاتها القليلة، ثم تمضي بحقيبتها الرمادية في بداية حياة جديدة بعنوان الرحيل ... تخرج من منزلها العتيق، وتتركه خال من ورائها لا يحمل في جوفه سوى الذكرى الجميلة، ولا يُعلَق على حيطان صالونه البالي شيئا من الديكور سوى صور الأحزان، فينطفئ الضوء فيه وتبدأ السكينة احتلالها، وتحوم على قرميد سقفه الأحمر الطيور الغريبة المهاجرة، التي تريد أن تتخذ من هجرانه بيتا لها ومأوى لرؤيتها المستقبلية.

آمال الجميلة تظهر رمادية بفستانها ذو الأزرار الكبيرة، وفي السماء عند بزوغ الفجر، شيء من اسوداد أعينها... يغطي حاجبيها شعرها الأسود النائم كما تنام الأحلام في ظل اليأس والمأساة.

ها هي الآن تركب في حافلة الغربة رغم أن ذلك لم يكن اختيارها، ولكنه من مشيئة الأيام المستبدة ومشيئة القدر أن ترحل تاركة وراءها ذكرى الموت والحب والشجون، ولا تحمل بين ضلوعها سوى روحا مقهورة من الظلم والعدوان والهزيمة النكراء.

طريق الحافلة يا آمال صعب، فهل سيصمد توازنها أمام هبوط الأودية وعلو المرتفعات؟! أم أنها ستُشتت ما بقي من الذكريات على حافة طريق السفر البعيد...

ها هي ذي تغادر المدينة، فتخرج من سورها العتيق الذي يرفع على عاتقه سيف العروبة،المهند الأصيل... كل الركاب حائرون منهم من يستغرق في النوم ومنهم من يستكشف ما وراء نافذة الحافلة... يطل ولا يفهم شيئا من تغييرات الحاضر ولا مجاهيل المستقبل، أما آمال فتدير وجهها نحو الجهة الخلفية لتلقي النظرة الأخيرة على مدينة الكآبة، والدموع تنزل من عينيها إكراما لوداع مدينة سريعة الغضب، والتي ربما ستعاقب كل من أراد هجرانها بعدم الملاقاة من جديد...بخصام قد يطول إلى نهاية العمر أو نهاية الدنيا... فكيف يتركونها وحيدة أمام يأس الأحزان!؟

آمال لا زالت تنظر من تلك النافذة، وهي تودع مسقط رأسها بحنين عسير لو ثار بركانه لأحرق تلال الأرض وصحاريها... إلى أن يصنع طول الطريق مسافة بُعدٍ تظهر من خلالها المدينة نقطة في الأفق البعيد، فتغيب عن الأنظار ولكنها لا تختفي أبدا عن ذاكرة محبيها...

الطريق إلى عكا

ابتعدت آمال عن البلدة، وانسلخت حافلة الأمل عن أثواب الحزن التي لبستها عند مخارج المدينة، دموعها لا زالت لم تتوقف عن النزول وهي تكتم في قلبها إحساسا قويا وصعبا في الوقت ذاته، بأنها لن ترَ من جديد تلك البلدة التي اختفت تماما عن الأنظار، بعد أن قررتْ منعرجات الطريق مصيرها بالغياب، وختمت منعرجات الأيام وثيقة ذلك القرار...

تمضي حاملة في صدرها ارض الربيع الخضراء المغطاة بأوراق الخريف المتناثرة، إلى جانبها دمعة وابتسامة عُدة للأيام...تاركة وراءها قلبا مقهورا مغروسا بين شقائق الفل في بستان البيت الصغير...

جادت السماء يومها على الطبيعة المتعبة مطرا غزيرا يشفي غليل الصدور التي أوقدت نار الظلم براكينها الهائلة...كانت الحافلة تمشي في وسط الطريق الضيّق، وكانت تدوس على ما فيه من تراب وحجر ونبات كما يدوس الزمن على عواطف تلك المرأة الفلسطينية، ومن مِثلها ممن أتعبهم الشقاء المكتوب عليهم... تنتظر أن تطلع شمس جديدة في ذلك النهار الجديد إلا أنها لم تظهر، فقد كانت السماء رمادية تلبسها الغيوم... تماما بلون فستانها...

الحافلة تمضي محاولة إدراك محطة الوصول، ومشاعر آمال تركض وراء قطار الزمن...قطار من الصنف الكلاسيكي، تذاكره يوزعها القدر، قائده من

المجهول ورُكّابه من صمت الليالي...فما الذي تفعله إن ركبَتْ مقعدا فيه؟ حين يختفي القدر الصامت خلف أبواب المجهول...؟

لوت الطريق إلى عكا عنقها مرات عديدة، وتسللت بين المرتفعات والجبال الفلسطينية كأفعى طويلة عملاقة...طريق تتشابك الأشجار الشامخة على طرفيه وتصنع له سقفا من الديكور الطبيعي الذي يغطيه جمال الآلهة وهدوء العواصف... قطعت شوطا كبيرا بعيدا عن المدينة الحزينة، وأصبحت تكتشف عالما جديدا تختلط فيه روعة الجهاد بصعوبة سبيل الأحلام والمستقبل، وأخيرا وصلت الحافلة إلى نقطة الحسم...نقطة العبور إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة... توقفت عند المحطة من بعد ساعات من السفر، ففي ذلك اليوم كان مفروضا نوعٌ من حظر التجوال الذي يمنع الحافلة من مواصلة سيرها إلى غاية محطة المدينة... نزل الركاب وآمال تمشي وسطهم، وكل منهم انتهج مسلكا تعوَّد أن يسلكه، فاغلبهم كانوا من الطبقة الكادحة التي تشتغل لكسب قوت يومها في المزارع أو غيرها من الأعمال الشاقة...بعد دقائق قليلة، بقيت آمال وحدها في تلك المحطة العابرة... بين أشباح السكينة في ذلك الطريق الهادئ، بدا ينتابها خوف شديد وبعد لحظات، هاهو السيد جبران قادم في سيارته إلى هذا المكان، وهو يلّوح بيده لأمال مخففا عنها وحشة الصمت وطول الانتظار...

بيت شبيه بالمتحف

رافق جبران آمال على طول الطريق إلى عكا، أما هي فكانت تنظر من حولها كشخص لا يفهم شيء وفي عينيها عَبَرات من الاستفهام...كان الطريق طويلا والجو قارس البرودة، ولكن الأصعب من ذلك كله هو صقيع المشاعر في معاني الاغتراب، فكان ينظر إليها في مرآة السيارة ولكنه تركها تعيش اللحظة مع نفسها دون أن ينطق بكلمة واحدة...

عند مدخل مدينة الأساطير والتاريخ المركّب، ركن جبران سيارته أمام فيلا قديمة الملامح ثم طلب من آمال النزول مُرَحِّبا بها.

دخلا سويا إلى المنزل...بابه من الخشب الأحمر القديم، إلى جانبه نافذتين مغلقتين منذ زمن بعيد، حتى اتخذت أوراق العِلّيق من مساحة خشبها الهشيم أرضا للنمو والتطاول...يطل الباب على رواق طويل أرضه من اللوح البني اللمّاع، وعلى حيطانه معلقة صورٌ لأشخاص قديمين، ألوانها من الأبيض والأسود...يصّب ذلك الرواق في دهليز واسع الأرجاء، يضم صالونات كثيرة من النوع القديم جدا قد يعود إلى الأربعينيات... على أرائكه وطاولته الكبيرة أوراق متناثرة... عود وكمان في ركنه الأيسر وعلى الجانب الآخر مجموعة أدراج قصيرة تصعد إلى الطابق العلوي به ثلاثة غرف كئيبة ومظلمة...

يزيد ترحيب السيد جبران وهو حامل حقائب آمال في يديه، ثم يفتح الغرفة الوسطى ويضع أغراضها عند المدخل، ويطلب من تلك السمراء أن تعتبر المكان بيتها الأصلي وأن تنسى شعور الخوف والوحدة والاغتراب...

دخلت آمال الغرفة وبدأت تتأمل...فوجدتها بمثابة ذكرى قديمة منسية بين محطات الزمن، على جدرانها صور لامرأة عاشت هنا، وتركتْ ماضيها وأحلامها ورحلتْ عن هذا العالم...استغربتْ لذلك كثيرا وزادت الأسئلة في نفسها والفضول... تأملتها كثيرا ثم رتبتْ الغرفة ودستْ حاجياتها في تلك الخزانة التراثية واستسلمتْ للنوم.

ما تركه لي أبي...

جزء من تاريخ فلسطين

حلَّ الليل وآمال لا زالت في العالم الآخر، تلملمُ أحلامها في خبايا الظلام وإذا بها دقات على باب الغرفة...جبران يناديها بأن وقت العشاء قد حان، فزعت الفتاة من نومها وهي تحدق في كل شيء من حولها لبعض الدقائق، ثم فتحتْ باب الغرفة وهي تمشي مشية غريبة لإنسان لا يدرك حقيقة المكان الذي هو فيه، تتأمل من جديد في حيطان المنزل وستائره البالية...

تنزل من تلك الأدراج الخشبية لتجد جبران جالسا أمام سفرة عليها أكل كثير...ألقتْ آمال التحية وجلستْ ثم انهمكتْ في الأكل بطريقة غريبة ومضحكة، وبعد مدة راجعتْ نفسها، رفعتْ عينيها فوجدته ينظر إليها وهو يبتسم...أرادتْ أن تشاطره تفكيره، فسألتهُ: "بما تفكر سيد جبران؟ (تصمت قليلا)...ما سر هذا المكان؟...هل هو بيتك؟"

قال: أنا أقيم فيه وهو من اعزّ ما املكُ هنا في عكا...تركه لي والدي لذلك لم أغيرْ من ديكوره شيء، تركتهُ هكذا، أنتيكة من متحف فلسطيني أصيل...انه أروع مكان في عكا وأروع ذكرى في وجداني...

في ذلك الركن الأصيل، أبي كان يعزف بعُوده ألحانا حزينة تبكي مرارة الواقع وتضمحل كصوت بلبل شاد في سيمفونية الاحتلال...كان والدي مدرسًا للموسيقى لذلك ورثتُ عنه حب الألحان وعشق الأشعار...".

- و ماذا عن الغرفة التي أقيمُ بها!؟

"هذه غرفة والدتي...مناضلة رسمية في صفوف الفداء وحينما كُشف أمرها، عذّبها اليهود بعد اعتقالها لأكثر من سبع سنوات، ثم أطلق سراحها في عيد الميلاد المجيد بعد تدهور حالتها الصحية، أقامتْ هنا معنا، وكانت حالتها الصحية تسوء يوما بعد يوم، فلم تبق بعدها سوى عامين ووافتها المنية... حزنتُ جدا لذلك وصليتُ للعذراء وترجيتُ أليسوع أن لا يضعضعَ ما بقي من أحلامنا، وأن يرحمها الرّب ويحيط روحها برحمته المقدسة في جلالة اللانهاية".

ثم أكمل السيد جبران أكله محاولا تجاوز الحديث في ذلك الموضوع، أما آمال فكانت تنظر إليه وهي لا زالت تستوعب ما كان يقول بكل دقة وتفحص، قائلة في نفسها: "كم هذا العدو أحمق...؟ فهو لم يترك بذرة خير واحدة لم يقتلعها، لا يفرق بن مسلم ولا مسيحي ولا يهمّه هيبة وعظمة المساجد وحتى لا قداسة المعابد أو الكنائس...".

عكا..مدينة هزمت نابليون

في إحدى ليالي الشتاء الباردة، قبل غروب الشمس بقليل، خرجتْ آمال تتجول في شوارع عكا وأزقتها العريقة، كانت ترددُ في ظل أفكارها عزفًا من التاريخ، الذي يشهد لهذه المدينة أنها حسناء المدائن الفلسطينية...

صوت من سكون الليل يغطي أجواء عكا، حينما تبكي سماؤها أمطار الدموع التي ضاقت ذرعا بكل ما يمارس هنا... من قال أن عكا يهودية؟! وما هي إلا مما شيّده العرب القدامى، بناها الكنعانيون الأوائل حوالي ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد ومنحتْها العروبة اسم 'عكر، بمعنى الرمال الحرة الصافية، وظلت صارخة فيها مصحوبة بحضارة العصور، التي سرقتْ من اليونانيين أسوارا وحصونا منيعة لا زالت موجودة إلى يومنا هذا على حدود عكا، مزارا للسياح وشاهدا على العصر...

و سجلت لها الأيام في طيّات دفاترها الأبدية، أنها ساحة المعركة بين الأسطورتين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين الأيوبي، مدافعا على أرضها على مبادئ العروبة التي لا غبار عليها، رافعا سيفها الراقي بقيادته المحنكة على عاتق أهاليها الذين هم فئة من شعب صامد في وجه الطغاة... سالت دماؤهم إبان الحروب الصليبية، بعد أن أشعلت قناديل الأصالة في صدورهم بارودا يكوي ظلم الغزاة وأوقدت على جبينهم شمسا عنوانها " فلسطين عربية"،و من بعد ضجيج حقبة من الزمن وقعتْ خلالها عكا ضحية للتسويات اللاعادلة التي

قرّرها القدر، فسقطت بين أيادي الطامعين ولكن ما فتئت تبكي وتصرخ حتى انجدها احد قادة المماليك، حاملا من مصر القديمة ما تبقى من العروبة، على عتاد جيش حقّق النصر الذي تمخضته الأيام مولودا جديدا سمي بفتح عكا، فأصبحت كغيرها من البقاع ولاية عثمانية، شُيّدت فيها حصون أخرى، حملتْ نقوشا وأثارا تؤكد عروبتها للزمن...

حينما غابت شمس الأرض العربية وأصابها الانحطاط، ظهرت أسطورة جيش لا يقهر، نابعة من ارض أصبحت تلازمها القوة من بعد قرون من الجهل والتدهور، وانحنى عنق التاريخ في البلاد الضعيفة عندما وضع نابليون الفرنسي نعله على عرش العالم القديم، وأصبح رُبّان سفينةٍ، وقائد أسطولٍ لا تهّمه التخاويف، ولا يأبه بخبايا الأيام. قدم مجتاحا وهو يدق الأرض بمشيته المختالة على هوان الأمم، وعندها وقف أمام ميناء عكا العريق فاتحا صدره لدماء أكثر، اقل ثمنا في اعتقاده وأوفر كَمّا، محتفلا ببطشه وانتصاراته على أمم الدنيا وأراضيها الواسعة، مجهزا أسطوله الذي لا يقهر، قادما من مملكة لا تغيب عنها الشمس، حاملا خنجر الغدر والطغيان، فجابهته عكا بحسنها النائم على رمال الشاطئ، حاملة في يدها سيف العروبة النحيل وفي الأخرى راية الكبرياء والشموخ، وبعد حديث طال بين بيض الصفائح، كسر المهند العكي حواجز الغزاة الذين تراجعوا يروون قصصا مقهورة ومضحكة عن هزائمهم، وراح نابليون يجر أذيال الهزيمة حافيا تاركا وراءه حطام الرذيلة...رُفعتْ راية الحرية على كف العروبة العذب، وتزينت عكا للزمن حاملة مفتاح الحضارة، شاهدة على العصر الذي نالت منه وسام الانتصار رغما عن انف الأيام...فمن يقول إذن أن عكا يهودية!؟

عكا تتحدثُ عن نفسها أنها حسناء فلسطينية، وصلتْ بعزة نفسها إلى معنى الغرور! ولكن من تلك الأنثى التي لا تغترُ بعشق العظماء من الرجال لها؟ أوَ ليس من العدل أن تغارَ منها جميلات المدائن؟و قد سفك لأجلها صلاح الدين دماً وفاز بحبها له، وكتب لأجلها نقولا الصائغ قصيدة منقوشة على حصنها الحجري، قصيدة يزيد عمرها عن الأربع مائة سنة...

مدينة راقية المعاني، وتجيد الخلط بين أرواح الحب والحرب، فهي تحارب نفسها وتحارب التاريخ لإثبات هويتها وأصالة انتمائها... تتفهم حوار الأديان والحضارات بين عرب مسلمين ومسيحيين، اختاروا النضال الفلسطيني بصورة يصعب فهمها، هُم عرب قيل عنهم عرب إسرائيل وإن كانت ألفاظ التاريخ تظلم الشعوب أحيانا، ولكن حقيقة الأيام قد أثبتت عكس هذا القول وارتأت أنهم وطنيون حتى النخاع، فهم يدافعون عن فلسطين ويجاهدون بإقامتهم في عقر دار الاحتلال، فكيف يتركون أرضهم لشعب زرعه القدر المتأخر فئات مشتتة في نهاية النصف الأول من القرن العشرين...؟هم عرب يحملون قوة الإنسان الحقيقي، الذي يواجه فلسفة الحياة من عمق الأطروحة التاريخية... لهم معابدهم وأجملها معبد الكرنك، الذي اختلطتْ فيه الفنون من عهد الرومان إلى العصور الحديثة، ولهم مساجدهم التي تركها العثمانيون وأروعها مسجد الجزار، الذي شيّده اكبر المبدعين في فن المعمار آنذاك.

عكا مدينة يعشق فيها البر البحر، ويُولد فيها الأذان في أحضان أجراس الكنائس المقدسة، وتختلط فيها الأديان من يهودية، نصرانية، بهائية، وإسلام... مدينة الرمل والجمال الساحر حينما تسافر الأحلام إلى احمرار الشفق، وترقد

الشمس في أحضان الأفق، ويمسح البحر بيده على جبينها المتعب وتنطلق فيها أغنيات السلام والحرية فمن قال إذن أن عكا يهودية!؟

رجعت آمال في وقت متأخر تناقش جبران فيما شاهدت قائلة له:

"إنها مدينة الكبرياء...

اسمها عكا

حسناء فلسطينية

تبكي حول عينيها...

سماء أورشليم الرمادية

تحكي عنها قصصا خرافية

و تشهد لها الأيام أنها

مدينة الأساطير القوية...

ينال الحب فيها إقامة جبرية

مكبلا بسلاسل الجذور العربية

حينما يزور القدر معابدها

حالما بأمنية...

و يوقد فيها

شموع السلام والحرية

و يمضي واثقا من ظلم العصور

و ينشد على مسامعها أغنية

لقصيدة حزينة عنوانها

فلسطين عربية.....

و يزور كنائسها....

جامعها الكبير...

ديانة بهائية

يطفئ الليل في عينيها

أحلامه الوردية...

و يشعل في كئابة شمسها

قناديل عربية...

وقودها الدم والحجارة...

و بعض الأحلام الورقية

تائهة في غسق الليل

على شواطئها الحجرية...

مدينة تبتسم وتبكي

لأوجاعها الجدية

قائلة في مدن الصمت

رثاء استهزاء...

و قصائد سخرية...

مدينة سرق من عمرها الزمن

سنوات بهية...

و ختمت على جبينها الدنيا

قبلة المواساة الوهمية..."

كانت آمال تبتسم حينها، ووشوشة البحر والوادي تسيطر على روحها، وفي خامة صوتها شيء من همس عكا دافئ الكلمات...ما رأته خفّف عنها كثيرا من رصيد أحزانها وكأنها أصبحت لا تبالي بالاحتلال حين تشهد عكا رغم كل الحواجز بأنها عربية، وتكتب ذلك على حصونها وأرضها وتعلقه قنديلا على جبينها الأسمر.

استغرب السيد جبران لحالتها هذه، وهو لم يرها من قبل تبتسم حق ابتسامة تنبع من صميم الوجدان...

تسامرا سويا على ضوء القمر ولهيب المدخنة فقالت له: " اليوم...اليوم فقط أدركتُ أكثر، وزاد اقتناعي بأن فلسطين قوية...اكبر بكثير مما تحاول أن تفعل بها الحرب...إنها لا تبالي بالضغط المفروض عليها،أنا فلسطينية بكل ما تحمله هذه الكلمة من انتماء وطني، لأنني كنت أخشى أن تنقرض هذه الجنسية ما دامت تعاني المنفى والمهجر وحضر التجوال، ولكنني وجدتُ معانٍ أخرى جديدة...جميلة راسخة...واضحة كضوء القمر في ليلة ليس فيها غيوم ولا يغطيها ستار التاريخ..."

الصمت عار

مرت أيام وليالٍ على إقامة آمال بعكا...و بدأت تعتاد على هذا الوضع الجديد، وهي تتخذ من جبران صديقا وفيا وأبا محبا، بل أنها قولبتْ في شخصه معاني الوحدة الوطنية الفلسطينية، إذْ انه احتواها في منزله ابنة مقربة رغم اختلاف المبادئ الشخصية واختلاف الدين، فهو لم يكن سوى من معارف أبيها القديمين ولكنها حين استنجدت به لم يتأخر عنها في حمايتها، ودفعَها إلى طريق جديد يفتح أمامها الكثير من الأبواب المغلقة...

توسط الخريف في مسيرته الغامضة، وتناوبتْ أحزان الليل والنهار على أوقاته الضائعة في دروب الشتات، ذلك لأن خريف عكا يختلف عن خريف باقي المدن والقرى، فهو لا يمثل مجرد فصل من فصول السنة، والذي يهّمُ فيه الفلاح بتقليب أرضه وزرعها...فالعرب في عكا يزرعون أيامهم حزنا وتعاسة، حين يعود عليهم الخريف في كل سنة ليذكرهم بعيد ميلاد جراحهم العميقة... فكم من خريف يا ترى وكم من عام...؟ وعكا لا تزال تنغمس في التهويد وتراب الوطن يرثي طريق العودة إلى أهاليه...؟

في صبيحة يوم من أيام تشرين الثاني استيقظت آمال والفجر يتنفس أنفاسه الأولى، بعد أن غاب ظلام الليل بعيدا في الأفق، جلستْ في شرفة غرفتها الكلاسيكية، تقلب ذكريات الماضي وخبايا الحاضر والأتي وعكا تظهر بهندامها المتعب... مدينة يغلب عليها الطابع الحجري، بيوت وأزقة وساحات يمتزج

فيها اختلاط الأديان باختلاف الثقافات والرؤى، وتلتوي فيها الدروب البالية وتتسلل من بين الحواري بدءا بوسط المدينة وصولا إلى الميناء...أين يعانق البحر شجون الحياة، ويمنح حسناء المدائن حصنا دافئا تتوه فيه حبات الصَدَف اللامعة بين المد والجزر...

تفكر آمال وتتساءل في ذلك المنظر... وإن كانت عكا هي التي تتساءل، كيف سلَّمَت عمرها للقدر؟ وللبحر؟ وللغرباء؟... ربما لأن أمواج البحر الميتة الهادئة أعجبتها، فأحبتْ في صورته تلك الأمان والزرقة الصادقة، ولكن ماذا عن مصير الغريق عند الغضب؟ فالبحر احتضن عكا هادئا، وصادقها نائما، ولكنه غدر بها في قمة غضبه وغيظه، وبنفس القدر الذي منحه إياها جمالا ورونقا حمّلها ما لا تطيق من الأحزان...؟

مزق ذلك الصمت الرهيب الممزوج بدقة التفكير طرَقٌ على الباب، وإذا به السيد جبران بابتسامته العريضة التي عوّد عليها آمال، ولكنها متجددة في هذا اليوم وكأنه يحمل بين شفتيه شيئا جديدا... يفاتحها قائلا: " كلنا ملك للأوطان، ومن قبل الوطن نحن وُجدنا لعبادة الإله والالتزام بالدين... أ لم تتساءلي يوما ماذا قدمت لفلسطين...؟"

جلست آمال أمامه كصنم جامد لا تحرك سوى عينيها الجميلتين، لقراءة وجهه وأفكاره، وقد كانت تتشرب ما يقول وتفكر في إجابة تقدمها له، ومن بعد صمت طويل قالت: " قدمتُ لوطني ما استطعت عليه، فصبرتُ على وحشة الأيام، ومزقتْ الأحزانَ وجداني، وواجهتُ الموت بعينه في ظلمة الليالي، وكنتُ

ألملم جراحي وكآبتي لمدة تزيد عن العشرين سنة، أَ وَلا تظنُ ذلك كافيا...؟"
يبتسم جبران مجددا ويرد عليها بإجابة حكيمة:

" يختلف النضال في معناه من شخص لأخر، ومن رجل لامرأة، فالنضال في غزة يلبس حلة الدماء والشهادة، وهو حق نضال لرجال فحول في ساحة الوغى، ونضالنا نحن في المدن المحتلة يحمل عنوان الانتماء والوجود، أو معاني البقاء وعدم الهروب من واقع الاحتلال المرير... إنّنا نموت في كل يوم حين نصادف الغرباء في شوارع مدننا، وحين نشعر بأن أنفاسهم تلوث هواء مدينتنا، وهنالك أناس عظماء، أخذ نضالهم وجهة أخرى نحو العالمية والمحافل الدولية... هؤلاء نضالهم أكثر رسمية كنضال السياسيين وأصحاب القرار، وأكثر من ذلك رموز الأمة الفلسطينية، منزلتهم من منزلة الشهداء أو المجاهدين، إنهم الشعراء والمثقفين والذين يستشهدون مع كل قصيدة وكل كلمة، يوصِلون من خلالها صوت الشعوب المقهورة في ليل الاستعمار، فما رأيك إذن لو أهديتكِ فرصة لتكوني بين هؤلاء...؟".

آمال تقطع ابتسامتها الجميلة وتقول:

" ماذا...؟ أنا وهؤلاء... أنا لا أسْمى لأن أكون مثلهم...أنا...؟ أنا لا ادري ماذا علي أن أقول..."

يرد عليها جبران قائلا: "لا أظن انك سوف تردين فلسطين لحظة الاستغاثة بك...؟"ثم ينصرف من أمامها وهي لا زالت تريد استكمال حديثها.

تصمت وتجلس حائرة في موقف صعب... أمواج الأفكار تتلاطم في رأسها وحب الوطن موقود في صدرها النحيف.

مضت ساعات اليوم كاملة وآمال مستغرقة في تفكيرها العميق، وعندما حل المساء فتحت الفتاة باب غرفتها ونزلت متأنية على تلك الأدراج متجهة صوب السيد جبران...جلست على ركبتيها أمامه قائلة: " أهذا هو المشروع الذي وعدتني به؟ أنا لم أفكر حتى في نوع هذا المشروع؟ إذ أنني كلّمتُك من بعد ليلة من ليالي الجحيم، بعد أن ضقتُ ذرعا بالحرب والموت، فرأيتُ فيك منجدا ومغيثا، أنا لم احلم بأكثر من عمل شريف، يمُكّنني من أن أعيش كباقي البشر... لم احلم يوما بالشهرة ولا بالعظمة... و...".

يقاطعها جبران مفصحا عن مفاجأته:

" نعم أنا أعطيك فرصة ذهبية لذلك...

أ تدركين ما هي...؟"يصمت قليلا ثم يقول:

" الصمت عار... اسم فرقة فنية فلسطينية مبتدئة تمثل فلسطين في المحافل الدولية، وتجعل منها عروسا للثقافة، وتزرع حب وعدالة القضية في نفوس شرفاء هذا العالم، رئيس هذه الفرقة ومنسقها العام صديق عزيز، ممن درسوا وعشقوا الموسيقى حين تعزف ألحانا من الوطنية، القومية ومن معاني الحرية... من كيان الإنسان الحقيقي الذي يرفض الهوان ويقول -لا- أمام الملأ، وأنا رأيتُ فيك روحا جميلة لإنسان جميل، يحمل بين ضلوعه اسما من أسماء الوطن، في صدر فنان يعشق الطبيعة وأحزانها، ويستنجد بضمير العالم النائم، أ وَلا ترين في

ذلك نضالا؟ أنا لا أريدك أن تكوني امرأة عاشت في زمن الاحتلال، تعاني الظلم والقصف وتبكي في سكون الليل، أو تشكو للبحر كآبة وجدانها كما نفعل نحن هنا، في هذه الدروب الصامتة التي لا يمزق سكونها المخيف سوى دعاء إلى رب السماء، نفك به قيود نفوسنا المتعبة... أريد أن اصنع منك الأنثى التي لا تهاب المخاطر والتي تجابه يوما ما جماهيرا من الأمم والشعوب قائلة بأعلى صوتها رأيا صارخا بالحق في الوطن وفي العروبة..."

جلست آمال أمام لهيب المدخنة تستحضر كلماته المعّبرة ممزوجة بصوت اللهب، وتلقي نظرة من تلك النافذة على سماءٍ غيومها تبكي من قسوة الأيام وينطلق صوت الرعد المخيف تليه حبات البرد فيشاغب رذاذ المطر أوراق الأشجار التي بعثرها الخريف برياحه المجهولة، أوراق تعاني الحنين لأغصان أِلفتها، فكانت تلك الحسناء كوريقة اصفرت بمشيئة القدر في جوانح الحب المكبوت...

في صبيحة الغد استيقظت آمال على نفحات الصباح الأولى، وجهزّت نفسها باكرا على غير عادتها، وإذا بها تخرج من المنزل مسرعة لتدرك جبران قبل أن ينطلق بسيارته قائلة:

" صباح الخير...هل لنا أن نذهبَ الآن...؟ لنرد جميل فلسطين...؟ هيا بنا"، أطلقتْ هذه الكلمات والابتسامة العريضة تغطي ملامح وجهها الجميل فلم يرد عليها جبران بكلمة واحدة، ولكنه اكتفى فقط بتلك الضحكة المسرورة التي بدت عليه وقد كان فرحا جدا بقبولها هذا العرض، فلمعتْ دمعة بؤبؤ عينه المرهق... عين شاحبة من تقدم الأيام ومداهمة العمر لشيخ ذو أكثر من خمسة عقود...

انطلقا سويا على متن السيارة وأخذتْ هذه الأخيرة تشق مباني المدينة، كانت آمال تحدق في شوارع عكا وكأنها تراها لأول مرة، وهي تستقرئ فيها وعلى حيطانها تاريخ شعب قوي، حسدته الأيام وغار منه القدر، فشتته وهجّره وقتّل من أبنائه ما قتّل، وعندما تسترق النظر نحو ذلك الرجل النبيل، تجده مبتسما غارقا في بحار بهجته، حتى أنها استغربتْ من ذلك حقا واستعجبتْ من كِبَر فرحته بها.

دامت تساؤلات العيون هذه طوال الطريق، وخيّم على العقول سكون جميل، يمنح الأفكار انطلاقة في فضاء الحقيقة، إلى أن وصلا إلى بيت السيد مارسيل، واحد من أعجب بيوت عكا العتيقة والتاريخية، فإذا استغربتْ حال جبران في بيته الشبيه بالمتحف، فإن فيلا السيد مارسيل أنطوان أمر آخر...

نزلا سويا من السيارة متجهين نحو باب عملاق من الخشب الأحمر، الذي ألبسه القِدَم منظر الطبيعة والعراقة..ُفتح الباب وإذا به بستان رائع بين ذرات ترابه أجمل أنواع الورود، مزركشة بكل ألوانها من احمر، اصفر وبنفسجي، أمام مدخل البيت مجموعة من الأدراج الرخامية القديمة، والتي نخر الزمن على حجرها الأبيض رسومات غريبة أبلاها القدم وشاخت عليه ساعات الدهر. أمامها باب من الخشب الصلب اللّماع...طرقا عليه ففتحت لهما خادمة وسيمة الملامح، تجيد اللغة العربية، ورحبّت بالسيد جبران ترحيبا يدل على سابق معرفة بينهما...دخلا يمشيان في رواق طويل ألوان حيطانه رمادية وحزينة، كان المكان هادئا وكأنه بيت شاعرٍ أو فنانٍ... يصب الرواق في دهليز ذو غرفتين، توجها إلى الجهة اليمنى وجلسا منتظرين، يرتشفان القهوة في صمت وذهول...

كانت آمال تحدق في اسوداد القهوة كقارئة فنجان محترفة وبينما هي حائرة في أمرها، اصدر البلاط صوت نقرشة حذاء، رفعتْ الفتاة عينيها الجميلتين لحظتئذ اقتحم رجل فضاءهما الهادئ،ذو عينين حوراوتين داخل أجفان أتعبها السهر، فترك العمر على محيطها ذكريات من تجاعيد وهيبة، زادته عظمة ووقارا حين اختلط شعره الأسود بفتائل فضية رسمت على ذقنه شيبا يصنع من كآبته خبرة في الحياة...زرع الرجل على شفتيه ابتسامة حزينة تلاها عناق طويل ومعبّر مع السيد جبران، الذي ضمّه إلى صدره باحتضان مشوق يدل على عمق الصداقة الحميمة بين رجلين، جمعتْ بينهما مفارقات الغربة على ارض الوطن، وصنعوا من اختلافاتهم الشخصية محبة صافية كزرقة سماء الحرية، لأن الوطن المغتصب واحد، ولأن العدو مشترك حين يقف هنالك ساخرا من أحزان الضعفاء...

اقترب الرجل من آمال بغية إلقاء التحية، فمدتْ يدها المرتجفة نحو يده الشائخة في حين ما مزق جبران هدوء الموقف قائلا: "أقدم لكِ مارسيل أنطوان المدير الفني لفرقة الصمت عار..."ابتسمت آمال في وجهه قائلة: "آمال... فلسطينية من غزة... مدينة الأحزان...".

فيرد عليها: " أصبحنا على هذه الأرض لا نجيد إلا الشجون والحسرة والوحدة الغريبة...؟ أهلا بك بيننا".

طالت جلسة الأحبة وتكلموا كثيرا عن الحب والثورة، وعن الحرب والوطن كما طال حديثهم عن الغربة وآلامها، فما أصعب أن يكون المرء غريبا في أرضه وبين عشيرته...؟ أعجبتْ آمال كثيرا بالسيد مارسيل، كما تنبأ لها

بمستقبل جميل بأفكارها الوطنية الحماسية، واعتز بانضمامها للفرقة التي يحمل اسمها لوحده تعبيرا عن حب الوطن الخالد...

عندما حل المساء رجعت الفتاة برفقة جبران إلى المنزل، وكانت البهجة تملأ صدرها بسمة بعيدة عن معاني الكَرَب، ثم بادرت تسأل جبران عن سبب سعادته الكبيرة بقبولها العمل مع هذه الفرقة، فأجابها قائلا: "لم ابتهج لأجل نفسي... ولكنني فعلت ذلك لأنني أسعدت غيري كثيرا، أسعدتكِ أنتِ حينما فتحتُ أمامكِ أبواب المستقبل المشرق وأسعدتُ مارسيل... أسعدتُه كثيرا"

تنظر إليه مستغربة قوله ثم تقول: "كيف أسعدتَ مارسيل...؟"

-"كانت له ابنة وحيدة اسمها سهى، حوراء الملامح، حسنة المظهر، شيقة الكلام، كانت بسمتها تملأ على مارسيل معنى الغربة ووجع الاحتلال، كان يحبها كثيرا وجعلها شمعدانا علّق عليه كل شموع الأمل، كنسيج غريب بكل خيوطه التي أرهقها العمل وراحت تصور فيها يد الإبداع شيئا من الجمال والحزن والِقدَم، ولكنها اختفت في يوم من الأيام وكانت نهاية علاقتها بأبيها وهو لا يعرف ما الذي أصابها، وإن كانت على قيد الحياة أم أصبحت صوتا دفينا في إحدى المقابر المهجورة ومن يومها أصبح مارسيل غريب الطباع، يُؤْثر الوحدة والفراغ الحزين، وأصبح في البكاء مجيدا ومكثرا، وفي الرثاء كئيبا وحائرا، وأصبحت كلماته لا مصير لها، فهو لا يبتسم إلا قليلا في موقفين: " الجلوس معي أو العمل مع الفرقة"... يسكت قليلا ثم يواصل كلامه: " فأنا أريدكِ أن تكوني له هدية من السماء، أن تمنحيه بسمة من عمق أحزانك، خصوصا وانك

تدركين معنى الفراق والوحدة والهجران...أما هو فسوف يتبنى أحلامك وطموحاتك...كوني له صوتا ولو خافتا في صمته الدائم، أو ضياء باهتا في ظلام أيامه القاتم، وأنا اعلم كم آنت فنانة متميزة، تزرع البسمة في قلب أبيها الثاني من بعدي أنا...وجودكِ غيَّر الكثير في منزلي، وأشعرني بمعاني الجمال والحداثة والتغيير، فقد كنت أحيا حياة شيخ صامت لا يكَّلِم سوى السكينة ولا يعبّر عن مكبوتاته إلا بعزف موسيقي على ذلك الكمان...ما أتعسني وما أتعس لحن الأحزان...؟"ثم يبتسم حيث تقاطعه آمال عند محاولته استئناف كلامه: "لماذا لم تتزوج...؟ أليس لديك أولاد...؟".

يقلص الرجل ابتسامته ثم يحول عينيه نحوها قائلا:

" لا...و كم هو غريب ذلك...؟ كم هو غريب...؟ إن هذا الفؤاد ويا له من حزين بين جماهير البؤساء التي تحتل منزلي، يعاني كل ليلة مع صور أبلاها القِدم، وحكم على أناسها الدهرُ بالرحيل، وضاعت معها ذرات الأمل وبقايا الابتهاج، بل أخذتْ مني رفات الذكريات الجميلة التي جعلتُ قلبي وعقلي لها مدفنا، وأقامتْ لنفسها ضريحا في صدري، تزوره الجراح في كل يوم...أحببتكِ ابنة تحمل اسم حبيبة مضت...كان اسمها آمال وعندما رحلتْ بعد حادث أليم أخذت معها آمالي وأمنياتي، وزرَعَتهْا هنالك في شمس بعيدة، تلّوح لي في كل فجر بأنها لم تنس مودتي وحبي لها، وأنا أضحيتُ راضيا بذلك فابعثُ لها سلامات اشتياقي في كل يوم، بل وفي كل وهلة في حياتي التي أعيشها، وكم تمنيتُ لو تكون لي ابنة اسميها آمال، واجعلها ذكرى قريبة من فؤادي تحمل اسمي تماما كما حلِمتُ لو أهديته لفتاة أحببتها ذات يوم...أحببتها حبا صادقا،

وفيا، لا تقف أمامه ساعات الزمن ولا يؤَّثر فيه النسيان...انه حب عجيب لم يتغير رغم أن القدر قد بدّلني بعد أن تناوبت على شبابِي أيامه ولياليه، وصنعت مني شيخا بائسا في سكون هذا الليل...لذلك ساعدتكِ أكثر، ليس الحقيقة أنه بدافع معرفتي القديمة بأبيك ولكنكِ في الواقع جزءٌ جميلٌ من ذكريات شيخ مهزوم...رجل قدره غلاّب وعاطفته أصعب وأعسر"...

ارتمت آمال تبكي بصدق، ووضعت جبينها على يد جبران وكان صوت شهيقها المكتوم شبيه بغسق الليل المظلم، وفي عينيها الكثير من الكلام الذي قلبته المواجع والآلام من بقايا حب مضى واندثر في ساحات المجهول...

مقيمٌ في فؤادي أيها الوجع...

أمضتْ آمال ليلة كاملة وهي تستحضر أوجاع الهوى، ولكن في هذه المرة، المكانُ يختلف قليلا عن معبد الانتظار...من أعلى بيوت مدينة عكا وأعرقها، شهقتْ الفتاة تنادي حبا أصابها بالجنون... حب تحوَّل إلى جحيم مجهول بعد أن كان جنة تغرد فيها البلابل.

حياتنا مليئة بالبشر...أناس تختلف أطباعهم وأفكارهم...يحتفظ بهم الإنسان في ذاكرة أليمة، تتخبط صورها الكثيرة بين البقاء والنسيان، وقد تألمت آمال كثيرا على نسيانها هذا الحب في الليالي التي مضت، وإن كان نسيانا جزئيا في وقت محدود إلا انه في نظرها شبيه بالخيانة...؟ما كان عليها أبدا أن تنهمك في استكشاف حاضر جديد اسمه عكا، مع إهمال حب شهدت عليه معابد الانتظار كلها واستأجر له الحنين أعلى مأوى في مدن الكآبة...كانت الحسناء تبكي بكاء الندم العسير وقررت أن تعيش ما تبقى من حياتها مخلصة لذكرى مجهولة... ذكرى تجمع بين براءة الطفولة وسذاجة العاشقين...أيتها الأيام اسجحي فما للسجين حيلة أمام سوط جلاده.

في الغد الباكر استيقظت الفتاة من ليل لم تَنمْ من ساعاته الطويلة شيء سوى دقائق معدودة، أمضتها في أحلام اليقظة الوهمية ثم نهضت تلملم جراحها والأوجاع المقيمة بجوارها قد قررتْ البقاء طويلا...

اليوم موعد جديد مع مارسيل أنطوان، لقاء زاد في رونق الأحزان وصنع من الدموع بريقا لامعا كلَمْعَة الصَدَف وغرابة الصُدَف التي نخرتْ على شاطئ عكا كلاما معبرا، ورسمت في لوحة الأحزان تمثالا للشجن، قلبه من حجر وطِينه مصنوع من تراب الوطن الذي أضحى بعيدا...

باشرت آمال عملها مع فرقة الصمت عار، لأيام عديدة...انتهجت سبيل الشعر والموسيقى، فراحت تقول قصائد حزينة، وتعزف على آلة الفيولون كلاما شيقا ممزوجا بمعنى الحب والحرب، تائها بين تسميات الوطن والمنفى، وقد كانت الأكثر لمعانا ونجومية بين أقرانِها، فزادتْ فرحة مارسيل بها كثيرا رغم أن ابتساماتِها الجميلة في ضوء النهار تحوِّلها إلى شهقة بكاء بائسة... حائرة بين اليأس والأمل، في ليلة ليلاء تفرش ساحات الظلام بذكريات المأساة، حين تنطلق الأمنيات حافية بين دروب القدر...

رحلتي إلى جنيف

بعد تألق دام لأكثر من سنتين، حيث أصبحت آمال من نجوم الموسيقى اللامعين ولكنها تملك شيئا من الكاركتير الفلسطيني الفريد من نوعه، فالحب والموسيقى على الطريقة الفلسطينية يختلفان كثيرا عمّا هو موجود في نفوس باقي البشر، لأنه يستنبط الأمل من وجع الحرب التي حصدت الكثير من الأحبة، ويصنع من ألحانه رنات من الحنين والعذاب، تنطلق من رموزها الموسيقية أغاني السلام والحرية، وتملأ قاعات غريبة من الصمت والحروب، فيصبح جمهورها تائها بين مشاعر الخوف وهتافات الحرية...

اليوم ليلة من أواخر كانون الثاني، كانت ليلة المفاجأة، حيث نالت آمال وساما من التقدير لجهدها المبذول في سبيل الأرض ومعنى السلام، خاصة وأنها أبدعتْ في الموسيقى الحزينة وصنعت منها أمواجا كثيرة هادئة في بحر الغضب، وفي ريح العنفوان، وأضفت على جمال كآبتها رملاً وزبدًا يكَّمل روح الألحان بكلمات القصائد، وراحت من خلالها تجتاح جوانب حسّاسة في نفس الإنسان الفلسطيني، الذي يتخذ من قسوة الدهر دافعا للبقاء ومن ثمة توجهتْ بسبيلها النحيل وجهة أخرى في طريق المستقبل، حيث عرض عليها مارسيل السفر إلى جنيف، إحدى مدائن الحسن الأوروبية...ممثلة عن الفرقة، فنظرتْ إليه نظرة الفرحة والتردد، وطلبت منه مهلة للتفكير... خرجتْ من بعدها بقرار حاسم بالقبول فراحتْ تجهز نفسها للسفر...

عادت آمال في سيارتها الخاصة إلى المنزل، ورغم ازدحام الطريق في عكا إلا أنها لم تفكر سوى بالمستقبل المشرق...كانت الفرحة تملأ عينيها الجميلتين، اللتين شربتا من مرارة الحزن كؤوسا كثيرة وبعد وصولها إلى منزل السيد جبران، ركنتْ سيارتها جانبا ثم فتحت باب المنزل، وَجدتْهُ قد تغيّر كثيرا، وأصبح كما كان عندما رأته لأول مرة... بيتٌ مظلم أغلِقت كل نوافذِه وُأطرحَت عليها ستائرها غامقة الألوان، وأصبح نوره خافتا فجلستْ جماهير الأحزان في صالونه الواسع... بدأت آمال تتأمل ذلك البيت حتى ظنت وكأنه بيت مهجور، حسبتْ أن جبران قد ترك المكان، ولكنها ما لبثتْ أن تصل بخطواتها المتأنية إلى نهاية الرواق حتى لمحتْ هنالك في الزاوية، شبح جبران الصامت يجلس مقهورا في نسيج الكآبة المحيطة به...

سقطتْ حقيبة آمال السوداء الصغيرة من يدها وذلك من دهشتها اللامحدودة لما أصابه، ثم ركضت تجري نحوه تفتش في جسده ووجهه عن الأسى الذي أصابه، ومن بعد صمت طويل، رفع جبران يديه المجعدتين من قسوة الدهر ومرور الأيام والسنين ووضعهما على كتفيها قائلا:

" ابنتي...ابنتي آمال...لقد اشتقتُ إليكِ".

سقطتْ دمعات حزنٍ من نور عينيها الجميل، وبدّلت عباراته فرحة الحسناء كآبة عميقة، أما هو فكان يبكي ويبتسم، كان سعيدا لأجلها وتعيسا لآجل نفسه، فها هي اليوم واحدة أخرى من الأحبة يضيفها جبران لقائمة الراحلين...؟ وليست أي واحدة، إنها آمال، بنت أحلامه وحب عمره الخالد.

جلست الفتاة على ركبتيها تحاول التخفيف عنه، قائلة في نفسها: " كيف أترك هذا الشيخ البائس؟ ولِمن اتركه في غيابي؟"، ثم تقول له من جديد: " سوف نكون على اتصال دائم، سوف أزورك في كل شهر مرة، لأنك أبي...".

آمال من شدة حرقتها ولوعة الأسى التي أصابت قلبها، أصبحت تقول وعودا كثيرة...أصبحت تقول كلاما ربما ليس في مقدورها القيام به حقا... كانت عاطفتها تتأرجح بين معاني الحب والألفة والتعود ثم تغمرها موجة من الشفقة والحزن لما أصاب السيد جبران، أحستْ وكأنها غدرتْ به رغم كل ما فعله لأجلها، رغم تلك الابتسامة التي شيَّدتها شفتيه وصنعتْ من حولها روحا من الابتهاج رغم كل ما هو قادم، من مأساة ومعاناة ووِحدة...

جبران كان يعرف جيدا ما تخفيه له الأيام، فهو يعتقد انه رجل بلا قدر وأن قدره خليط بين الحزن والفراغ لذلك كان يبتسم، ربما لأنه تعود الابتسامة رغم كل الأوضاع التي كان يعيشها، فكم هو صعب أن يجد المرء نفسه في آخر أيامه، يُطل على حقبة طويلة قضاها في هذه الحياة، تغيّر فيها جملة وتفصيلا، ولكن الكاركتير الوحيد الذي رفض كل التبديلات الزمنية هو الأحزان، إذ أنها احتفظتْ بجبروتها وقسوتها وأصبحت كما كانت منذ عقود كثيرة، وهي التي لم ترحمْ شابا عاشقا في مقتبل العمر، فكيف لها أن ترأفَ اليوم بشيخ بائس مهزوم...؟

بينما كانت آمال مستغرقة في تفكيرها وهي لا تزال على نفس جلستها الحزينة، نهض جبران من على الأريكة ماسحا دمعه النحيل، ثم قام بتقبيل جبينها ُقبلة مفعمة بالحنان والتشجيع، وتوجّه إلى غرفته بخطوات تجر بعضها على طول تلك الأدراج الخشبية البالية.

أصبحت آمال الآن لوحدها في ذلك الصالون، تعيش في أجوائه جماهير الأحزان الكثيرة، والتي أضحت تستمتع برومانسيته التراجيدية وعزفه الحزين، كانت الحسناء حائرة تفكر فيما فعَلَتْهُ، وهل كان صوابا أم خطيئة، اقترفتْها في حق الرجل الذي امسك بيدها إلى أن أصبحت من نجوم اللحن والكلمة.

توجهتْ نحو غرفتها وبمجرد ما فتحت الباب، أول ما لَمحتْه كانت تلك الحقائب التي تنادي للسفر ولم يبقَ على موعد طائرتها سوى ساعات معدودة، أمضتها بوجدان تتمزق عواطفه بين بحر الحنين وعاطفة المستقبل الهادئة، والتي تنتظر أن تشعل الأيام كبريتها الأخير، فتندفع نحو أبواب المجهول محاولة فتحها في وجه شابة صاعدة في دروب الحياة، ولكن ليتها لا تقفل أبوابا أخرى في وجه رجل مهزوم شاخ عليه الزمن.

في مطار عكا

تفاجأت آمال حينما خرج جبران من غرفته متهيئا للخروج من المنزل، لأجل أن يرافقها للمطار وأخبرها بأن كل شيء على ما يرام، وأنّ أوراق السفر مع مارسيل.

حَمِلا سويا حقائب السفر وانطلقا نحو مطار عكا، كانت تسترق النظر نحو جبران الذي ظلّ صامتا طول الطريق، وفي نفس الوقت مبتسما، ولكن ابتسامته في هذه المرة لا تفسير لها ولا محل لها من الصحة، فكانت تظهر بأنها مصطنعة للتخفيف عن آمال، ومواساتها في وجه أحزان الفراق.

استدارت الفتاة دون أن تشعر، وأصبحت تحدق في الطريق...؟ مِنْ بعدِ ما أَلِفتْ عناقَ شجونه لمدة تقارب ثلاثة أعوام، اختارت اليوم أن تتركه من بعد ما كانت تقطن بإحدى الفيلات الموجودة على حافته، وكأنه طريق ودّعته من قبل، فهذا الموقف ليس بعيدا عن ذاكرتها، ولا بغريب عنها وعن عواطفها الغريقة في الأحزان، بالأمس القريب ودّعت غزة واليوم ها هي تودّع مدينة فلسطينية أخرى، قصدتها في لحظة مجهولة تمزج بين الخوف والملل، من حياة القصف ودموع اللهب، وودّعت في يومها فلسطين العرب التي تمثل ساحة المعركة بين بقايا النخوة العربية والغاصبين، أما اليوم فهي تودّع فلسطين المحتلة، وبذلك تودّع في مطار عكا آخر حبة من تراب الوطن الأصيل، فإذا كانت قد اعتقدتْ سابقا أن الطريق إلى عكا هو طريق الغربة، فإنّ هذه الليلة تمثل لها حقا بداية

مشوارها في البحث عن وطنٍ لحب مجهول ولعاطفة غريبة، في بلاد اختلطتْ فيها وجهات التفكير، وتصادمتْ فيها المحافظة بموجات العولمة.

وصلا إلى المطار، جبران لا زال يحاول إخفاء حزنه، فكان يصنع ستارا مبتسما ليغطي به خشبة مسرحٍ لدراما حزينة جدا، تحكي آلام الماضي ووجع الفراق، خطوات قليلة أوصلتهما إلى شباك التذاكر، فوجدا مارسيل يحمل في يديه أوراق السفر والدموع في عينيه تحاول النزول وتتردد، فتصنع لمعة من الحزن والجمال حول بؤبؤ شيخ مهزوم، ما بقي له سوى شيء من الذكريات. عانقها بحرارة، وكأنه يحتضن بين يديه ابنة غابت عنه منذ سنين طوال، فقالت لهما بكلام مبحوح وصوت تخنقه العبَرَات:

"تحسدني فتيات الدنيا كلها، لأن لدي أبوين اثنين، جبران ومارسيل... فمن لها أن تكون قرينتي؟"و تبتسم لهما ابتسامة وهمية تخفّف بها عن صدورهم عاطفة الشجن.

وقفت أمال في طابور المسافرين تنتظر دورها، فتقدمتْ بها سلسلة الواقفين إلى أن أضحى مارسيل وأنطوان بعيدين عنها، يلوحان بأيديهما بصورة معبرة، فها هي آمال اليوم ترحل ولم يبق لكل منهما سوى الرجل الآخر، الذي يواسي ويحتضن ويتقاسم الهموم الكثيرة...؟

جاء دور آمال فقدمت وثائقها للهيئة الإدارية المعنية، وبعد معاينتها انتقلت نحو الطائرة، وهي تحاول أن تستدير نحوهما ثم تتردد خائفة من آخر صورة قد تبقى في ذاكرتها قبل مغادرة الوطن، وبعد صراع مع ذاتها

أدارتْ رأسها ببطء نحو الرجلين، فلم تجد سوى الآلام من حولها يقف في وسطها شبحين من الكآبة والوحدة، وكأن الزمن توقف وأصبحت الدنيا كلها فراغ، ما من شيء أغرب من تلك الوقفة، كانت موعدا مع الأصيل وموعدا مع الوداع الأخير، وكأنها تدرك أنها لن تراهما مجددا، ولن تستطيع أن تفي بوعودها التي نسجت من خيوطها الذابلة كلاما كثيرا، مفعما بالأمل الكاذب.

بكت آمال بكاء صامتا وقد جردتها الحرب من كل شيء كانت تحبه، سلبتْ منها أبا محبا وأما حنون، وأخذت من قلبها حبا أصبح في اللانهاية، وجعلتْ منها امرأة حزينة بائسة لا تحتفظ سوى بذكريات الألم، التي حملتها من مدينة الأحزان إلى جنيف... مدينة أخرى تمزج معاني الحب في أقداح الشجون، ولكن الحب فيها ليس عربيا ولا يُمَارَسُ كما هو عند العرب، فالحب الشرقي شيء آخر تقولبه الأصالة في العاطفة والمعنى رغم مرور الأيام وتقدم السنين...

الحب العربي هو الذي يصنع الإنسان، وأكثر من ذلك يصنع الرجال الأصالب، لأنه ديوان جميل رافق الشِعْر منذ الأزل، وصاحب الجمال، واعتُرِف به منذ القديم، منذ أن كان عفيفا عذريا، يضحي لأجله الأحبة، ويكون العهد فيه شبيها بحِدّة السيف، عند العرب إما أن يعيش الحب كريما مبجلا في ضوء النهار، أو ينتحر العاشقون على حافة فجر يوم تسطع فيه شمس جديدة، اغتالت شمس الحب الذي اندثر...

ركبت آمال الطائرة ولم تبق إلا دقائق قليلة على الإقلاع، ثم ألقت نظرة من النافذة الصغيرة الموجودة جانبا، كانت السكينة تحتل ذلك الليل الهادئ،

وهنالك في الأفق عرش الأحزان الكبير كعادته، متزين بدموع العاشقين، يسخر من العيون المنهكة ويستهزئ بالقلوب المقهورة...

ثم انطلق صوت الميكرفون عاليا مُطالبا بربط أحزمة الأمان من كل الركاب، وعندما استدارت قليلا للقيام بذلك، سقط منها جواز السفر أرضا وقد سقط مفتوحا على صفحة واجهته الخلفية، لترى ذلك الختم الإسرائيلي عليه...؟ فتساءلتْ متألمة لماذا لم يكن ختم جوازها فلسطينيا فحسب...؟لماذا عليها أن تستشير أولئك الغرباء ليسمحوا لها أو لا يسمحوا بالتنقل بين بقاع الأرض...؟ وقد أثرّ فيها الأمر، فأصبحت عاطفتها تتآكل من شدة الغيظ، خاصة بعد أن رأت بعض اليهود يجلسون إلى جانبها على متن الطائرة نفسها، فماذا إن سألها احد في سويسرا عن مكان قدومها هل سوف تحتار في الإجابة بين فلسطين أو الكيان الغاصب الملتصق بجغرافيتها؟

استمرت الطائرة تكابد صعود الأفق وانحنائه، والفتاة لا تزال حائرة في أمرها طوال ساعات السفر وهي تستخلص من تجارب الأيام عبرة وموعظة.

من مدائن القمر

وصلت آمال إلى جنيف في يوم غريب في تاريخها، وبنفس الطقس الكئيب استقبلتها واحدة من أجمل بقاع سويسرا، من ثمة إلى الفندق الذي كان في استقبالها، وقد كان مكانا جبليا رائعا، وكأنه مبنى أوجدته الصُدف في ديكور الطبيعة، وأضفتْ عليه يد الإله جمالا لا مثيل له، ومن بعد ساعات من الاستراحة والتي لملمتْ فيها ما بقي من تراثها النفسي، لبستْ معطفها الأسود، ونزلت تجُّر قاماتها محاولة استكشاف المكان الجذاب بحسن الطبيعة وإبداع السماء.

كان الجو باردا في ذلك اليوم، وكانت الغيوم تبكي أمطار الاشتياق لأماكن أحبّتها وأقامت فيها، بل تشكلتْ بعدما كانت أجزاء متناثرة في يوم كانت فيه الأرض هادئة، لا صراخ فيها ولا غضب، لكنها تفاجأتْ بقرار الرحيل، حينما بدَّلت الطبيعة حنانَها قسوة وتصّلب، فرحلت تلك الغيمات إلى مكان أكثر تحجّرا، وأصبحت تنفق وكوف الحنين والبعد عن الديار، وهكذا كانت العاصفة نفسها في صدر آمال، كانت رغم كل جمالها شبيهة بتلك الغيوم، الفرق بينهما ليس بكبير سوى أن الحسناء كانت تمشي على الأرض، أما الغيوم فكانت تزحف في عنان السماء، كانتا تمشيان معا، تحملان في جعبتهما نفس الألم ونفس البكاء، وإن كانت غيوم الشتاء أحسن حالا من آمال، فقد كانت تمشي جماعات تقدم لبعضها المواساة، أما تلك الأنثى الحزينة، فكانت تمشي وحيدة على طول ذلك الطريق المغطى بالأشجار سقفا وجانبا، كان المكان يحمل روعة

المأساة وقمة التراجيدية، حيث افترشت وريقات الأشجار الصفراء ترابه، فكان يحتفظ بانهيار الخريف في جبروت الشتاء...

يصاحب ذلك الطريق على طوله واد صغير، يكسر وحشة الصمت بمعنى الحياة، ويزرع في أحزان الكبت جمالا ورونقا بخرير مياهه الخافت...

جلست آمال إلى جانب ذلك الرافد، وأصبحت تستقرئ في عبراته كلاما كثيرا، من أي موطن أتى؟ وإلى أي ارض غريبة سوف يسافر...؟ فأصبحت بذلك تبحث لكل شيء عن وطن؟ وعن ارض يجب أن يبق وفيا لها؟ وفؤادها ينبض في صدر مزَّقه تضارب العواطف واختلاف مشاعر المعاناة.

صاحب المعطف

خرجت آمال في تلك الليلة الليلاء، تمشي مع من يمشون من البشر في أزقة جنيف العريقة في القِدَم، والغريقة على جانبها الآخر في مظاهر الحضارة. كانت تمشي بروح تعبؤها الأحزان وتدوس على أحلامها ضغوطات الثورة، ثورة الوطن وثورة النفس، وأحيانا كثيرة ثورة الحب... آمال الآن تفكر في بسّام الذي أضاعه القدر خارج أسوار فلسطين، ولكن هل ضاع منها عشقها إليه أيضا...؟

كانت تحاول تفسير موقفها في مشوار البحث، هل هو عن حب تشكو الحنين إليه؟ أو عن وطن تحلم به الكلمات في ريشة شاعرة وقيثارة ثائرة؟ أم كانت بعد كل هذا الضجيج تبحث عن نفسها بين ضوضاء الحرب وهدوء التاريخ...؟ والغريب في ذلك أنها كانت تبحثُ عن سبيل يوصلها إليه في جنيف، فما أدراها أنه هناك؟ وما أبعدَ هذه الأرض الغريبة التي تعُّد أنفاس العرب؟

و بينما هي تمشي حائرة في أمرها، وإذا بها تبتعد قليلا عن الأماكن المزدحمة بأحذية المارة وصفير المترو، وقفتْ تفكر في الرجوع من حيث أتَتْ، كان المكان جميلا، ساكنا، يصنع رونقه الفراغ والصمت الذي يخيم على سمائه وترابه، بل وحتى مياه ذلك الوادي الصغير تصمتُ أيضا، تأخذ من الأيام عبرة الكبت والتكتم، خوفا من ريح عنيفة تبعث بها إلى حيث لا تحتسب.

تدير رأسها إلى الجانب الآخر للطريق، محاولة بفضولها زيادة استكشاف المكان والاستمتاع برومانسيته الحزينة، لترى هنالك في الزاوية رجلا غامضا،

كان يمشي معها بمحاذاة الطريق بنفس الوتيرة، وعندما تقف يقف هو أيضا ملتفتا إلى الجهة الأخرى بجانبه، حيث لا يمكنها التعرف على ملامحه.

كان رجلا مخيفا، غريب الطباع، أنيق الهندام، لم يظهر من معطفه الأسود سوى قدَمَيْه، بحذاء لمّاع يصدر صوتا عند مشيته، يكسر تلك السكينة ويزيد من رعب الوحدة ووحشة الغربة، كان الاندهاش واضحا على وجهها حيث أصبحت تحدّق فيه بشكل غريب، يؤكد له أنَّه لفت انتباهها، وأنّها في بداية استلام رسالة منه لا تحتاج إلى بريد سوى النظرات، ولا لموزع سوى مشاعر الخوف والارتباك، ثم قرّرت أن تمشي بعيدة عنه في طريق رجوعها، فبدأت تهرول مسرعة نحو الأماكن الزاخرة بالراجلين، ثم تسترق النظر نحوه فإذا به يقلدها تماما في مِشيتها، فإذا أسرعتْ أسرعَ وإذا توقفتْ مشى مشية بطيئة ساخرة، أدركتْ حينها أنّه يقصدها تماما كما أنّه على دراية كاملة بمدى خوفها واضطرابها، فواصلتْ خطواتها السريعة إلى أن اقتربتْ من مجموعة تلك المقاهي التي يجلس فيها العشّاق والذين يحبذون السهر خارج منازلهم ليلا، وعندما التفتتْ نحوه لم تجده تماما فقد اختفى بسرعة البرق، حاولتْ كثيرا البحث عنه بين تلك الجماهير الغفيرة على طول الطريق، فأصبح وبدون سابق إنذار غير موجود.

جلستْ متعبة على واحد من تلك الكراسي وهي تفكر، هل ذلك كان حقيقة أم تهيأتْ؟...

كاد أن يصيبها الجنون، حياتها المبعثرة لا ينقصها هذا الغموض، فقد كانت تحمل بين ضلوعها ما يكفي لحرق كوكب من البشر ولكن الرجل صاحب المعطف قد أثار فضولها وجمّد تفكيرها وزرع حولها أسوارا من

الخوف، التي أصبحت مطوقة داخلها كعصافير السلام المحجوزة في أقفاص الطغاة.

رجعت آمال إلى الأوتيل الذي كانت مقيمة به،

كانت تظهر مرهقة كعادتها، تجر خيوط الفشل وأذيال الهزيمة، طالما اعتبرتْ نفسها مهزومة في معركة الحياة، صعدتْ تلك الأدراج نحو غرفتها في الطابق الأول، كانت لا ترى سوى الظلام ولا تحس سوى الفراغ من حولها، فراغ الجوف والمحيط، تحاول البكاء للتخفيف عن نفسها لكن دموعها قد جفَّتْ في تلك الليلة البائسة، ورفضتْ النزول، فصنعت من الوجنة الوردية السمراء أرضا قاحلة عطشى للمطر، كانت تكلِّم نفسها وتشك في كل ما حولها من أدوات وأثاث وأكثر من ذلك إنسان، لدرجة أنها استلقتْ على سريرها بملابسها وحذائها البني، بعد أن قامتْ بتفتيش الغرفة كلها وتقليب أغراضها شكا فيما يكون قد دُسّ لها واستسلمتْ للنوم المميت في وسط تلك الفوضى والأفكار المشوشة.

في حفل أقيم في صالة ذلك الفندق، نزلتْ آمال ليلا لترّفه عن نفسها قليلا بعد المعاناة التي شهدتها في الأيام الماضية، كانت الأضواء المزركشة تملأ عتمة ذلك الصالون، والناس في وسطه ينهمكون في رقصات جميلة على نغمات سويسرية أكثر من رائعة...

جلست آمال إلى جانب تلك النافذة وقد كان زجاجها مغطى بحبات المطر الصغيرة، فبدأت تستقرئ في كلماتها بل في حوارها مع الطبيعة.

رغم كل الضوضاء التي كانت في تلك القاعة، كانت الفتاة لا تسمع سوى ذبذبات الصمت الهادئة، ولا ترى إلا أشباح السكينة في تلك الزوايا المظلمة، وفجأة أضاء البرق سماء جنيف حاملا في طيّاته مشوارا جديدا من الاستمرارية، رافعا راية الوكوف عاليا ثم تنهمك حبات البَرَد في النزول، مشاغبة تلك النوافذ بصوتها الجريء ونقرشتها الحساسة، وإذا بريح عاتية تهزّها بشدة رافعة كل تلك الستائر، وقد كان صوتها مخيفا برونقه الجميل في الوقت ذاته، وفجأة تكّلم رجل معها قائلا: "أهنئك سيدتي على ذلك العزف الجميل والراقي، أنا من اشدّ معجبيك"... فابتسمت آمال شاكرة له، رغم أن طريقة كلامه كانت مخيفة ومفاجئة، حيث كسر حاجز ذلك الصمت دون سابق إنذار مع امرأة لم يسبق له وأن تكلم معها أبدا.

- يضيف: " هل تسمحين لي سيدتي بالجلوس معك؟" ويطلق تلك الابتسامة...

جلس مع آمال على نفس الطاولة، وهي لا زالت تعاود التفكير إذا كان ما تفعله من الصواب أم لا... يجلس ذلك الرجل وهو ينظر إليها نظرة غريبة، بها الكثير من المعاني، ثم يغيّر شكل وجْنتَيه مبتسما لعينيها ابتسامة وعرة، غير مفهومة القصد، وكأنه يعرفها منذ زمن ثم يقول لها: " ما أجمل الحب الذي يمزج كيانه في غضب الطبيعة...؟"، ينظرُ إلى النافذة وقد كان المطر يسقط مدرارا فتسكتُ آمال ثم تدير وجهها مفزوعة نحو المطر، وكأنها انتبهتْ للتو فقط أن الطبيعة غاضبة.

تفكرُ قليلا مُحاوِلَة استيعاب ما كان يقول، ثم تعاود النظر إليه فتجده مستغرقا في تأمل وجهها وطريقة تصفيف شعرها الأسود، وبمجرد ما تلتقي نظرتها بعينيه، يكرر تلك الابتسامة الخبيثة الساحرة. تنهض آمال مسرعة وتودّعه: "يجب عليّ أن اذهب"،فيبتسم للمرة الثالثة نفس الابتسامة قائلا: "ليلة سعيدة سيدتي"، ثم ينهض من مكانه مُقبِّلا يدها، أما هي فتكون تسبح في عالم من الاضطراب، لا تدري ماذا تفعل ولا ما تقول، ثم يعاود التربُّع على كرسيه وهو ينظر إلى الأفق متجاهلا وجودها أمامه، فتبدأ هي في الابتعاد عن الطاولة بخطوات متراجعة نحو الوراء وهي تنظر إليه محاولة كشف أسرار غموضه فكم كانت ألغاز كلماته صعبة للغاية...

تصعد هذه المرة في المصعد الأيمن نحو غرفتها، وتروح تفكرُ في كل ما حدث معها طول هذا اللقاء الغريب الذي لم يَدُمْ أكثر من بضعة دقائق، ولكنها خرجتْ متعبة منه وكأنها تعاني عدة قرون من استعباد هذا الرجل...

فتحتْ باب غرفتها ثم غيّرتْ ملابسها وراحت نحو الشرفة تحدق في جمال جنيف وأضوائها، ولكن كم هذا الجمال صعب حين يختلط كثيرا بمعنى الخوف والغربة؟ فقد يفقدُ رونقه الجذّاب ويصبح مجرد زركشة مريرة تضيء ظلمة سويسرا في ديجور الكون القاتم، ثم تعاودُ طرح تلك الستائر التي رفعتْها بيدها بغية استكشاف ليل المدينة، وتخلدُ إلى النوم مستلقية على سريرها، ظلتْ تفكر في رجل لا تعرفُ عن خبايا نفسه شيء أكثر من ٌقبلةٍ على يدها، ثم تحاولُ تعديل الوسائد التي تحت رأسها لتنام مرتاحة قليلا، وحينها تصبح عينيها في واجهة الباب الخلفية، وإذا بها تنهض مفزوعة فتطاير ذلك الغطاء من على سريرها...

ثم تبدأ في الاقتراب ببطء من الباب، وإذا به معطف أسْوَد معلَّق عليه، تتفحصه جيدا ملامسة الريش الذي يزيّنه عند العنق، فتجده مبلَّلا، وكأنه كان تحت المطر للتو فتُبَرّق عينيها فيه، وهي على يقين بأنه نفس المعطف الذي كان يرتديه ذلك الرجل الغامض، الذي طاردها في أزقة جنيف قبل أيام، والتي لا تعرف عنه أدنى معلومة تفك قيود حسرتها وحيرتها اللامتناهية واعتقادا منها بأنه نفس الرجل الغريب الذي قابلته وجلست معه قبل ساعات، فتنزع المعطف من على الباب مسرعة، ثم تركضُ على طول الأدراج إلى غاية الصالة أين أقيمتْ الحفلة، فتجد أن أغلب المدعوين قد غادروا، ولم يبق سوى بعض العشاق في الزوايا، إضافة إلى طقم عمّال التنظيف يلملمون بقايا تلك السهرة. يصبحُ الكلُّ ينظر إليها وهي واقفة في وسطهم، لا وجهة لها ولا غاية ولا تفسير لتصرفها المجنون أمامهم...؟

أعجبتني كثيرا شخصية آمال بل كانت في الواقع شخصية حبرية مثَّلتُ بها الكيان الفلسطيني المعذب، ولكنني لا أدري الآن لمَ أعترف، ربما لأنني أردتُ أن أكون مثلها، امرأة في أفق الحب والثورة، فأدرَجتُ نفسي بين ثنايا سرد العذاب والمعاناة التي يحملها الفلسطيني في صدره، أينما كان وحيثما وُجِد، ربما لأن عروبتي لم تكن كافية فيها بعد، لمواصلة السير الهادئ في ممرات العاطفة الفلسطينية...؟ فلم أقوَ أن أتعايش مع آمال، ليس كامرأة من الأرض المحتلة فحسب، وإنما أخافتني قوة الجمال وجبروت النفس التي تمتلكُها رغم كل وكوفها أمام الأحزان...

آمال كانت كلَّما ازدادتْ معاناتها، ازدادَ بعدي عن ميدان روايتي وأصبحتُ ضعيفة أكثر في وصفها، وفي تفحص قلب المأساة التي خرجتْ من

عمق غزة نحو فلسطين المحتلة، ومن ثمة إلى وهج الأصيل الذي يصاحب غروب الفكر العالمي عن ظلام ما يحدث للمرأة الفلسطينية...

قررت الحسناء أن تترك ذلك الفندق متجهة نحو آخر، لا مكان فيه لذكرياتها المتشائمة، فحملتْ أمتعتها وراحت تسلكُ دربا يتباينُ كثيرا عن دربها الأول، وثنائية الحب والوطن تمشي إلى جانبها كملائكة الحساب، كل يسجِّل لها في ثنايا التاريخ ما فَعلَتْهُ لأجله من تضحيات فائقة، وكل واحد يحذّرها إن زاد ميولها للجانب الآخر، كانت تبحثُ عن بسّام الذي ضاع منها خلف أبواب المجهول، التي قد تكون لحظة اكتشافها بالمعنى القاطع للموت أو الحياة بالنسبة لها...؟ وفي نفس العالم، كانتْ تفتشُ بكل إرادتها عن وطن يشبه أرض الشمس والحرية بعيدا عن سوط الجلاد، فكل منهما يحتاج التضحية، لذلك أصبحتْ تسبحُ في كون الغموض، كنجم بعيد ثاقب لمسار الكواكب، ولكنها اليوم وبعد كل ما عايَشَتْهُ، أصبحتْ تخاف أن تكون ذلك النجم الذي يهوي من عنان الأفق بمشيئة السماء، إلى أرض صامتة تصنع منه واحدا من مغارات الكبت، التي تدوسها أقدام الشعوب وتتجاهلها ذاكرة السنين...

آمال الحب والوطن لازالت تائهة في ذلك الطريق، بين أمواج النسيم التي كانت تداعب خصلات شعرها فترفعها عن أذنيها ورقبتها، وتهدي لها بذلك فرصة في التنفس من عمق مدينة الأحزان، التي توَّجتها ملكة كعادتها على عرش الجراح.

وقفت الآن عند محطة الانتظار، تحدقُ في طول الطريق يمينا وشمالا محاولة اجتيازه إلى الرصيف الآخر، كان الطريق شبه فارغ وكانت تحتله السكينة،

معبّرة عن استقبالها لهذه الزائرة الغريبة من موطن بعيد عن طباع البشر، تملؤه الدموع وتكون الحياة فيه صعبة، لدرجة أنه لا يدخله سوى الشعراء والمعذبون على الأرض، ليأخذوا فيه إقامة جبرية، يرتاحون على أرائك الأيام ما بقي من حياتهم وهم ينظرون من نافذة الحاضر الغريب، وأحيانا الذي لا معنى له، على الماضي المليء بعاطفة الحزن والحب والمنفى...

أصبحتْ الآن في وسط الطريق وفجأة أصبحت محاطة بعدد من الدراجات النارية التي كان سائقوها ملثمين، لا يظهر سوى جزء من عيونهم، وأصبحوا يشكّلون حلقة دائرية متحركة كالأفلام البوليسية، أما هي فكادتْ أن تفقدَ صوابها غير مدركة حقيقة ما يحدث، أ هو حقيقة أم خيال؟ أصبحت تهلوسُ به من شدة أحزانها، ثم اختطفَ أحدهم حقيبتها السوداء وزاد ضجيج أصواتهم المزعجة، إلى جانب صراخ عجلات دراجاتهم ثم انطلقوا فجأة أيضا نحو الطريق المجاور...

لم تصبحْ تلك الأنثى الحزينة اليوم تمتلك سوى ذلك المعطف الأسود، الذي يقيها شر الصقيع الذي يملأ شوارع الأرض الغريبة التي لا ترحم، أصبحت اليوم تائهة ما في جعبتها سوى الذكريات، وقد قضتْ الليلة كاملة على طول ذلك الممشى.

كم كان وضعها عسيرا من مضايقات الكثير من الغرباء لها، منهم من يراها متشردة ومنهم من يحسبها من بائعات الهوى، كانت الدموع تسيل روافدا من عينيها الجميلتين، غير واثقة في الأيام التي مهما حاولتْ أن تصدّقَ آمالها فشلتْ في ذلك، لأنها كانت دوما معها على خلاف... كانت بقدر ما تشيّد قصور

الأحلام الرائعة، تحوِّلها الساعات على عجلة الزمن إلى مقابر قديمة أ وإلى ارض قاحلة لا أمل فيها للعطاء...

مرّ أسبوع بكامله على تلك الحالة الصعبة، حتى أصبحت الفتاة تشبه في هندامها المتشردين وأولاد الشوارع... كانت إلى جوارهم خائفة منهم، ولكنها تحتمي بهم أمام من هم أشد قسوةً و افتراسا.

في إحدى الليالي وحينما كان المطر يسقي عطش التلال، كانت آمال في تلك الزاوية المظلمة حائرة في أمرها بين ظلماتِ الخيال الواسع، لا تدري أين تذهب؟ ولا من أي مكان أتَتْ؟ لأنها فقدتْ كل أوراقها الخاصة... جوازَ السفر، أرقام الهواتف،بضعفٍ منها أصبحت هائمة في عالم الذي لا تعرف عن خباياه شيء...

و إذا بها سيارة تقف على طول ذلك الرصيف، كانتْ سوداء اللون وقد صنعتْ حبيبات المطر الصغيرة رونقا زاد في لمعانها، كانت تظهرُ كاللواتي ينقلن الرؤساء والسياسيين في المحافل الدولية، وبعد لحظات معدودة نزلت منها امرأة شابة شقراء الملامح، جميلة الوقفة، ثم اقتربتْ من أولئك تحدّقُ بعينيها الجميلتين فيهم، وتُظهِرُ لهم الكثير من الشفقة على حالهم، أما سائق السيارة فكان يحاولُ حمايتها، فيقف إلى جانبها ويمشيان بنفس الوتيرة وهو يأخذُ الحذر التام من حثالة المجتمع السويسري، والتي يمكن لأحد المجانين منها أن يلحق الأذى بهذه السيدة الراقية، التي كانتْ تمشي مشية أصحاب المشاريع وسيدات الأعمال...

بين صفوف هؤلاء التائهين، بدأت السيدة جانين توزّع الهدايا والمأكولات، وكأنها تريد أن تنتشلَهم من طبقة عبيد المجتمع التي لا قيمة لها، فانهمكوا يضحكون ويأكلون ما طاب لهم من فضائل هذه السيّدة، أما آمال فالتزمتْ مكانها تتأمل من بعيد، فكم أنتِ عزيزة أيتها النفس العربية... رغم بؤس الأحوال التي تعايشها الفتاة، ولكنها لم تنسَ أنها حفيدة عنترة، فقد باتتْ على الطوى وأظلته، ولكنها تنتظرُ لتنال به كريمَ المأكلِ، وفجأة لَمَحَتها جانين منطوية على نفسها في ذلك المكان المظلم فشدَّت انتباهها، اقتربت السيّدة منها فوجدتْها خائفة، لا ثقة لها في دروب الحياة، ولا فرحة في قلبها اتجاه صُدفة الأيام، فقدومها إلى هذه البلاد الغريبة كان صدفة لم تكن في حُسبانها، واختفاء بسّام الذي سبّب في صدرها صاعقة من الألم لم يكن في حسبانها أيضا، بل كان كله من نسيج القدر الصامت في دنيا الغموض والأحزان اللامتناهية...

ألقَتْ عليها جانين التحية محاولة الكلام معها، وربما معرفة مأساتها وأسباب انعزالها إلا أنها ظلّتْ صامتة رغم كل المحاولات، فألقتْ السيّدة بين يديها بطاقة صغيرة: "هذه بطاقتي عليها كل أرقامي الهاتفية، وكذا العنوان، اتصلي بي أن أردتِ أي شيء"ثم انصرفوا...

كان ذلك البولفار فارغا لا يحوي إلا الظلام المزيّن برذاذ المطر الصغير، وآمال لم تتحركْ من مكانها بعد، مُحَاوِلَة استيعابَ ما يحصل لها تارة، وتتأملُ في أولئك البائسين تارة أخرى، وهم يغرقون في سعادتهم الكبيرة، لأنهم نالوا من دسائس الأيام العسيرة وتحّصلوا على عِشاء فاخر لم يحلموا به يوما... بعض أنواع المخللات، بعض المعّلبات السمكية الصغيرة، وشيء من الفاكهة، كانتْ

هذه كل أحلامهم الضئيلة...؟ فهل هذا هو ما يطمح له الإنسان طوال حياته، ويسعدُ كثيرا عند الظفر به؟ كم هم بؤساء... وكم أنت ظالم أيها القدر...؟فكيف لا تخجل أن تضع بين صفوفهم امرأة كآمال؟ امرأة تحلم بالحب ولا تخاف من استحالة مشواره، وتحلم بالوطن ولا تهاب صعوبات التفتيش عنه، وتبحث عن الأمل في أرض الأحبة وفي أرض الغرباء، بل عن أمل ضائع بين الأرض والسماء...؟ بين لحن قيثارتها وحزن القصائد، وقد كان السؤال واضحا في بريق عينيها الذي مَحَتْه الدموع، فكانت تسأل القدر:

" إلى أين تأخذني...؟" وكان القدر كعادته يحدق فيها صامتا لا جواب لديه.

مرَّ أسبوع كامل والأوضاع لا زالت نفسها، والكل تائه يبحث عن نفسه في شوارع جنيف وآمال تحت سيطرة بعض عصابات المتسّولين الذين قطعوا عنها سُبل الاتصال أو الاستنجاد حفاظا على ما تجلبه لهم بوجهها الحسن الذي يستثير شفقة كل من ينظر إليه، وعندما حلّت الظهيرة على ذلك الشارع الذي يحوي آمال الحب والوطن، إلى جانبها بعض أولاد الشوارع نائمين على أفرشتهم الكرتونية المليئة بالغبار والوحل، شاءت اللحظات أن يمزق ذلك الهدوء صوت مكبح سيارة خطير محاولا الدوران إلى اليمين، وقد كانت في أقصى سرعتها وكأنها مطاردة، ثم فتح أحدهم زجاج واحدة من نوافذها وألقى بذلك الكيس خارجا وانطلقوا بسرعة من جديد...

عمَّت الفوضى في المكان، الكل كان يصرخ محاولا كشف حقيقة الحادثة، وآمال التي اُلقِيَ بالكيس أمامها لا تدري ماذا تفعل به ولا لمن عليه أن يُرجَع، حيث كثُر الصراخ واعتقدوا أنه كيس ملّغم ففرّوا هاربين للابتعاد عنه...

في وسط ذلك الضجيج خرجتْ دراجة نارية من الشارع المجاور، واختطفَ صاحبها الكيس الرمادي من جديد ثم انطلق مسرعا، فانطلقتْ آمال تصرخ من ورائه وفجأة أخرستْ صوتها، وهي تدّقِقُ في تلك الدراجة من بعيد، تُشابه نفس التي اختطفتْ منها أغراضها ذات ليلة، فزادَ صراخها، ثم تِبعته تجري من ورائه ولكنه أضحى بعيدا، وكان الكلّ يحدقُ فيها مستعجبين من انفعالها الهائل لأجل كيس لا احد يعرف محتواه، ولا حقيقة صاحبه...

في تلك اللحظات وقفتْ سيارة مرسيدس فاخرة ونزل منها مجموعة من الرجال، وكأنّهم جماعة مافيا يرتدون ألبسة جلدية سوداء، والِتفوا بآمال ثم أمسكَ اثنين منهم بيديها لئلا تهرب.

اقترب قائدهم منها وصفعها على خدها بقوة، وهو يسألها: "أين الكيس؟ ومع من تتعاونين...؟"، ثم شرعوا في استجوابها تحت تهديد القوة آمال كانت تبكي ولا تدري ماذا تقول، لأنّها لا علم لها، بل كل ذلك كان من ترتيب الصُدف المشؤومة، فأصبحت تُقسمُ لهم بأنْ لا علاقة لها بالموضوع، لكن دون جدوى فقاموا باصطحابها معهم وهي مغمضة العينين، وانطلقت سيارتهم على طول ذلك الطريق مُبعثِرَة صفوف الناس، الذين التزموا أماكنهم بعيدا يحدقون في الموقف المريب، والذي زاده خوفا هيئة أولئك الرجال التي أوضحت جبروتهم ووحشيتهم اللا إنسانية.

كان الطريق نوعا ما طويل ولكن ليس كثيرا، رغم أن إحساس آمال بالخوف جعلها تعيش الكثير من سنوات الرعب خلال بعض الدقائق، شعرتْ بذلك الصمت الرهيب حيث كانوا لا يكثرون الكلام، وإن نطقوا نادرا

يتكلمون بألغاز غير مفهومة، إذ أنهم لم يمسوها بسوء... إلى أن توقفتْ السيارة فجأة بعد أن كانت تجري بسرعة فائقة في يد سائقها الماهر، نزلتْ آمال ومن معها حيث كانوا يأمرونها بالصمت كلما حاولت أن تتكلم لتبرأ نفسها، مشوا بعض الخطوات، وقد أحسّتْ الحسناء بفراغ ذلك المكان، وكأنه جو مزرعة بعيدة قليلا عن ضوضاء المدينة. دخلوا سويا وقد كان حفيف الأشجار يشكو من رياح جنيف الشمالية الباردة، فلم يكن سوى صمت تلك الوريقات يؤنس وحشة نفسها المتعبة، ويمنحها أملا كبيرا في البقاء كلما دقَّ ناقوس الوجل من شدة الصمت وهيبة الفراغ...

وجدتْ آمال في الداخل أناسا آخرين، من نفس الصنعة وقد زادت قسوتهم في استجوابها واستنتجت من أحاديثهم الكثيرة، أن الكيس كان يحوي مخدرات ثمينة لا يقل وزنها عن الخمسة كيلوغرامات وأنها مطالبة بإرجاعها لهم أو تسديد ثمنها وتعويضهم عن هذه الخسارة...

أحست آمال حينها أن الحياة قد أغلقتْ هذه المرة أبوابها الأخيرة في أفق الأمل، وتركتْها وحيدة هائمة لا حل لخوفها ولا نهاية لحيرتها.

فهي اليوم في بلاد غريبة دون وثيقة واحدة تثبتُ هويتها، وهذا ما كان يخيفها أكثر، لكنها من عمق تلك الأحزان تفطنت لرقم السيدة جانين، لتستغيث بها علَّها لا تقفل هي الأخرى أبوابها في وجه تلك التعيسة.

نطقتْ من بعد صمتها وذعرها، طالبة منهم استخدام الهاتف للاتصال بالسيدة جانين، وبعد رفض مبدئي لذلك سمحوا لها بمهاتفتها، فترجَّتْها آمال كثيرا لتُحررّها ولو نسبيا من قبضة هؤلاء.

قضتْ ليلة كاملة في ذلك المعتقل اللامفهوم، وفي الصباح الباكر قدمت جانين إلى المكان المطلوب، فقاموا بتفتيشها كلِّيا للتأكد من حسن نيّتها، وعند حلول التاسعة صباحا، دخلتْ جانين الغرفة التي كانت آمال محجوزة فيها، وقد بدا عليها الخوف والارتباك، جلست جانين إلى جانبها وقالت: " كيف لكِ أن تتحملي غرابة هذا المكان...؟ انَّه مخيف جدا؟"فاقتربتْ آمال منها وهي تردُ:

" لذلك طلبتُ منك الإغاثة... أرجوكِ ساعديني".

طالت جلستهم وتكلموا كثيرا، وهم يحاولون إيجاد حل مناسب في وسط ذلك الجو المليء بالعبارات اللامفهومة، فشرحوا للسيدة جانين حقيقة الأمر، ثم دافعت آمال عن نفسها كثيرا وهي تروي جوهر الحادثة بصوتها المبحوح تحت صدى البكاء، ثم دخلت مجموعة أخرى من أولئك الرجال وفي أيديهم سلاسل تلتفُ بأعناق بعض الكلاب البوليسية، وبعد حديثٍ دار بينهم زاد في لغة التهديد والوعيد، انصرفوا تاركين جانين حائرة إلى جانب آمال التي كانتْ تلبسُ عباءة اليأس والأحزان، مَانِحين لهما فرصة أخيرة للتشاور بشأن القرار الأخير...

ضمَّت تلك السيدة النبيلة آمال إلى صدرها، محاولة مواساتها والتخفيف عنها وبعد أن هدأتْ قليلا، تناقشتا جدِّيا في الموضوع فقالت جانين:

"إنني أصدقكِ لأن الحقيقة كانت واضحة في عينيك، وفي طريقة كلامكِ، وإنني...".

فقاطعتها آمال قائلة: " لِمَ هم لا يصدقونني إذن؟ أنا لم أفعل ْلهم شيئا؟".

تصمتُ جانين قليلا ثم ترد: " أصغي إلي جيدا، هذه العصابة جزء كبير من مافيا التهريب في سويسرا وأوروبا عموما، لذلك فلا حل معهم ولا فرار من قبضتهم، ولو هاجرتِ إلى آخر العالم، ولكن أين أوراقكِ الشخصية...؟".

آمال" لقد ضاعتْ مني كلها، سُرقت مني قبل شهر تقريبا...".

جانين: " وهل أنت سويسرية؟"

آمال: " لا أنا من بلاد الشام، ولابد أنك سيدة طيبة وسوف تساعدينني بإنسانيتك الرؤوفة، أرجوك ساعديني...".

جانين: " إذن لا يوجد حل آخر أمامنا، عليك أن تمضي لهم تعهدا بإرجاع هذا المبلغ، ومن ثمة العمل معي، فأنا مديرة جمعية خيرية تنشطُ بحقوق الإنسان...".

آمال: " ولكنني لو عملتُ معك إلى آخر أيام عمري لن استطيع تسديد مبلغ كهذا، إنها بمئات ألاف الدولارات إن لم يكن بالملايين...".

جانين: " لا تقلقي سوف ترُدِينه لهم بالتقسيط على ضمانتي وسوف أساعدكِ في ذلك، لأنهم يعرفون تماما قيمتي الاجتماعية وكذا الجمعية التي ذاع صيتها هنا في جنيف، والتي لها الكثير من الحلفاء...".

اتفقتْ جانين معهم على كل شيء وقد كان الموقف عسيرا للغاية، بسبب شروطهم الكثيرة وطريقة حوارهم الجافة، التي لا تدرك سوى معاني الماديات والمتاجرة والربح السريع ولا شيء غير ذلك، ولكن أسلوب جانين

الرائع في الإقناع ولباقتها في التحاور والمناقشة، هي التي جعلتْ من الصعب سهلا وتوصَّلتْ معهم إلى الاتفاق الأخير الذي اِقترحتْه على آمال وقبلتْ به، ثم خرجتا معا مغمضتا العينين نحو المكان الذي ركنتْ فيه جانين سيارتها...

كانت آمال تمشي في وسط المزرعة إلى جانب تلك المرأة العطوفة، وقد كان واضحا أنها تُهَرولُ بسرعة لكي تهربَ من ذلك المكان الوحشي، وانطلقتا معا نحو جنيف المدينة من جديد...

كانت آمال تلتفتُ وراءها خائفة ومذعورة من وحشية ما رأته على أيادي أولئك الجبابرة، فكانت تبكي تارة وتبتسم تارة أخرى، كيف أنقذها الله بمشيئته وكيف استطاعتْ الخروج من عمق هذا الجحيم بأعجوبة...؟

بدايتي

في واحد من أرقى شوارع مدينة جنيف، كانت تقيم تلك الشقراء في جو مفعم بالثراء وبكل شروط الحياة الكريمة، كان ذلك النهج ارستقراطيا يليقُ بجانين، سيدة ارستقراطية الطباع، أنيقةُ المظهر وعذبة الكلمات...

دخلتا معا على متن السيارة إلى الساحة الخضراء لتلك الفيلا، كان المكان جميلا يسحر الأنظار ويستجلب الخواطر، توقفت جانين على الجانب الأيسر للمسبح ثم نزلتا متجهتين نحو باب المنزل الخشبي اللماع، وكأن غيمة كانت تحرس ذلك البيت، فكل ما فيه كان مضللا وجُلّ ألوانه خافتة ومنظرها باهت، حيطانه مغلفة بورق التزيين المزركش بلون الأزهار الذابلة، حتى ذلك السجاد الذي كانتا تمشيان عليه، كان لونه مزيج من الوردي الفاتح والأصفر الباهت، وعلى حيطان صالونه الواسع كانت معلقة مجموعة من اللوحات الزيتية الغريبة، والتي تحوي صور الحروب الكلاسيكية... أناس مبعثرون على أرضها، والبعض على جيادهم يقاتلون، وأطفالٌ أرواحهم تطلع من صدورهم نحو السماء...

وقفتْ آمال تتفرج في تلك اللوحات وقد أحسّتْ بغرابة شديدة لذوق جانين، لدرجة خوفها من حقيقة هذه السيدة، فآمال امرأة تقتادها العاطفة وسر قلبها وإحساسها غالبا ما يكونان على صواب... فلِمَ يا ترى تستغربْ لجانين؟ رغم أنها لم تُظهر لها سوى محاسن الأخلاق ودفئ العاطفة...؟

مرَّتْ قرابة الثلاثة شهور وآمال مقيمة مع جانين في نفس البيت، حيث كانتا متفاهمتين جدا وكانت الحياة تسري عادية، لا خلل في أيامها... جانين كانت امرأة متفهمة، جميلة الروح وطيبة القلب، وكانت تقريبا تقضي طول نهارها في إدارة الجمعية الخيرية إلى جانبها آمال التي أعجبتْ كثيرا بطريقة تسييرهم ونظامهم، فكل شيء يأتي في موعده المحدد، حيث كانت تلك السيدة لا تؤمن بتسابيح الصُدَف ولا شيء يوجد في قاموسها اسمه التلقائية أو العشوائية، فالحياة كلها لعبة ذكاء والمرء هو الذي يصنع محطات دروبها، وهو الذي يتوقع ما الذي يمكن أن يواجهه خلال ساعات الزمن، هكذا كانوا يفكرّون... جانين ومن معها من المسيِّرين...

تساؤل مخيف بقي في داخل آمال: "لماذا حدث معها كل ذلك؟ ولِمَ كانت هي بالتحديد؟ ولم يكن غيرها مقصودا من اللعبة؟ ولماذا ذلك الشخص الذي سرق حقيبتها هو نفسه الذي عاد ليورّطها في كيس من الممنوعات؟ فهل المرء حقا يصنع أقداره...؟ فلِمَ لمْ تصنع آمال قدرها في البحث عن الحب؟ وفي البحث عن الوطن؟ لماذا صنعوه أولئك الغرباء وشرّدوها من فلسطين إلى سويسرا؟ بل وتحكموا في مصيرها أيضا...؟

كانت آمال غير مقتنعة بأنّ ما يحدث لها هو من حتمية الأيام، أو من المكتوب على الجبين فحسب،كما أنها كلَّما رأتْ جانين رغم كل طيبتها وعطائها اللامحدود، إلا أنها لم تكسبْ ثقة آمال يوما، فكانت كلَّما حاولتْ الارتياح لها، ينبع من قلبها صوت ساكن لا يسمعه احد سواها، كان ينبّهها ويحميها من خطيئتها، خطيئة الوثوق في هذه السّيدة...؟

كانت تحبذ دوما الجلوس ليلا على حافة ذلك المسبح، الذي تغطي وريقات الخريف مياهه الصامتة، يغطيها القلق والحيرة من مسرى حياتها الذي بات مخيفا وغير مفهوم...

كانتْ صبيحة الأحد... دخلت جانين على آمال في غرفتها، فهو يوم من أيام نهاية الأسبوع، لذلك كانت تحبذُ فيه الحسناء الجلوس قليلا مع نفسها ومحاولة إيجاد متنفس لها، من عمق شجونها التي حملتها وجالت بها بقاع العالم، وهي لا زالت تكبر وتزداد يوما بعد يوم...

كانت تلك الابتسامة ترافق جانين كعادتها، ولكنها في هذا اليوم أصبحت عريضة أكثر لا معنى لحجمها هذا، الذي أصبح غريبا مع مرور الأيام. وأصبحت آمال لا ثقة لها فيه أكثر من أي وقت مضى...؟

جلستا قليلا مع بعضهما محاولتين الكلام في أمور عادية، تتكرر بينهما كل يوم وفي سياق الحديث عن عملها في الجمعية، تسربتْ جانين من عمق الكلمات إلى حديث آخر، فداهمتها بالسؤال عما إذا كانت تعمل من قبل لصالح فرقة فنية فلسطينية؟ ففكرت آمال قليلا ثم ردّت: "نعم كنت اعمل مع فرقة فلسطينية اسمها الصمت عار والتي تعبر عن بعض معاناة شعبنا الأعزل..."

جانين: " ولِمَ لمْ تتكلمي عن هذا الموضوع من قبل؟"

آمال: "و لكن لم تكن لنا فرصة للحديث عن أعمالي السابقة، فأنا كنت اهتم بالموسيقى ولا يزال في نفسي ذلك الميول إلى يومنا هذا، لو لم تُسرَق مني أغراضي وأوراقي كلّها، لما شهدتُ معاناة الشوارع التي لم ترأف بجوارحي يوما".

-جانين: " ولِمَ لَمْ تفكري بالرجوع إليهم من بعد وصولكِ إلى هنا؟ أ تعتقدين أنني كنت لأَرفض...؟"

-آمال: " في الواقع لا... ولكن حادث الممنوعات الذي تورطتُ فيه، كان ليؤثر سلبا على سمعتي وكذا سمعة الفرقة، لذلك لا أحبذ الرجوع الآن... ربما لاحقا بعد أن أسدّد لهم المبلغ".

-جانين: "ولكنك لا تدركين أمرا مهمّا، لقد زارني اليوم أحد أفراد الشرطة السرية بجنيف، طالبا مني معلومات عنك، قائلا أن تلك الفرقة أصبحت متهمة بالإرهاب الثقافي، وكان قد طلب استجوابك باعتبارك عضوة سابقة، لولا أنني دافعتُ عنك كثيرا وأقسمتُ له أنك من غير الممكن أن تكوني كذلك".

-آمال تصمت منبهرة وهي تحدقُ أكثر في حقيقة جانين وكذا طريقة كلامها المبعثر، غير الموزون ثم تقول: " فرقة الصمت عار متهمة بالإرهاب الفني...؟ يا للعجب؟ وما الذي يمثل الإرهاب في التعبير عن ثقافة شعب تكيد له الأمم؟ وتحاربُه الدنيا، تحسده الشعوب من معنى الحرية الجميل؟ وتغار منه العصور، فتحرمُه حتى من حقه في الهواء وجغرافية الأرض؟ فهل أصبحوا يجهلون معنى الإرهاب؟؟... فمن يدافعُ عن أرضه ليس إرهابيا؟ ومن يدافعُ عن شعبه وعن أصالته ويحملُ دموع أيتام فلسطين، في كلمات شكوى نحو المحافل الدولية ليس إرهابيا، ومن يؤمن أن الوطن حق لابد من الحصول عليه وواجب لابد من الدفاع عنه ليس إرهابيا، فهل حب الوطن خطيئة عند هؤلاء؟"

اقتربت منها جانين بلباقتها الاعتيادية، محاولة التهدئة من روعها قائلة: "اهدئي... حبيبتي... إنني افهم ما تقولين، ولكن عليهم أن يقتنعوا بذلك فلنعمل سويا معا لأجل إثبات حقيقة الفرقة أمامهم".

آمال: " ولكن ما الذي عليّ أن أثبته؟؟ فالحقيقة واضحة؟" فردّت عليها جانين مؤكدة بأن الجهات الأمنية لا تؤمن إلا بلغة الدليل المادي الأكيد على صحة نشاطات الفرقة، وبأنها قد أقنعتْ ذلك المحقق بأن يكون له في يوم الغد موعد مع آمال، لإثبات نوع النشاطات التي تقوم بها تلك الفرقة الفلسطينية...؟

بعد حضور ذلك الموعد الغامض، تكلمت كثيرا آمال مع برنار موشيه، محقق في الشرطة السرية السويسرية ودافعتْ عن هوية الفرقة، ولكنّه كان مصمّما على رأيه، فكلَّما دعمّتْ الحسناء كلامها بدليل، أتاها هو بنقيضه محاولا استفزازها، وبعد مرور ساعات من الوقت، عرض عليها أن تتعاون معه لإثبات صحة ما تقول، وقد كانت آمال في قمة غضبها فنهضت من أمامه قائلة: " نعم... سوف أناضل... وسوف نثبتُ لكم أننا لسنا إرهابيين؟؟ لا لشيء وإنما لكي تذكروا أننا أقوياء، لا نؤمن بزعزعة الأيام ولا بخرافات الأقاويل، نحن أناس يبحثون عن وطن؟ ولا يهمّنا من مشوار بحثنا الطويل، سوى عبارات الختام؟ والتي تشهدُ للأرض بأنها لنا، وتقفُ بالمرصاد للتاريخ الذي يثبتُ وجودنا، رغما عنه ورغما عن مزاعم البائسين، سوف نناضل لأننا لا نخاف من نهاية حياتنا أو من بداية موتنا، بل لأننا نبتسم لغد جميل يحلم بالحرية على الأرض التي سيعود لها أولادنا جيلا بعد جيل، ليحتفلوا بانتصارات أبائهم وليخلدوا حب الأرض في صدورهم...؟".

ثم انصرفتْ وقد كان ذلك المحقق مندهشا من قوتها في الحديث، وحِدّتها في التعبير وصلابة رأيها في المطالبة بحق الوطن، وقد كان الخوف والارتباك باديين عليه، لدرجة أنّه لم يردْ بكلمة واحدة بعد نهاية الحديث بينهما، لأن حب الوطن يصنع الإنسان ويصنع التاريخ ويصنع الحضارة.

خرجت آمال يائسة من هؤلاء البشر ويائسة من قدرها أيضا، تمشي في شوارع جنيف، لا تدري أين تذهب؟ ولا لمن تشكي همومها؟ وقد زادت شكوكها في جانين التي لا زالت تتزيّن بتلك الابتسامة الجوفاء التي لا معنى لها...؟فهل هم يجهلون الحقيقة آم يتجاهلونها؟ أم هذا البحث عن الحقيقة هو الذي يريدونه من آمال منذ بداية متاعبها هنا في سويسرا؟؟

أصبحت تمشي كعادتها حائرة ولكنها اليوم تضيفُ بأنها لا تفهم شيئا من حولها، والأمر الوحيد الذي أصبحت متأكدة منه، هو أن السِّر يكمن في جانين، التي اقتادتها من قلب الشارع إلى قلب معاناة جديدة زادت في الأحزان بريقا ورونقا، جعلها مكبوتة في الصدر لا تطاق ولا تحتمل.

عندما حلّ المساء عادت آمال إلى المنزل، وبمجرد ما فتحتْ الباب وجدتْ جانين تنتظرها وهي في قمة الغضب، كانت تروح وتأتي أمام ذلك الصالون، وهي تمسك يدها بالأخرى تارة، وتشبك أصابعها ببعضها تارة أخرى، كالذي ضاع منه شيء ثمين وهو في قمة قلقه، عمَّا إذا كان سوف يسترجعه أم لا؟

دخلت آمال وبدأت تقترب من تلك السيدة، وهي تستغرب لحالتها غير المفهومة، خاصة وأن جانين لم تكن يوما في حالة من حالات الغضب أو الانفعال وإنما عرفتْها دوما هادئة ومبتسمة...

بمجرد ما سمعتْ السيدة صوت حذاءها، استدارت مفزوعة نحوها ثم قامت باحتضانها: " أين كنتِ لقد قلقتُ عليكِ... قلقتُ جدا..." وكانت ترتجف والارتباك واضح على ملامح وجهها وطريقتها في الحديث.

آمال الآن أصبحت حقا خائفة من اضطرابات هذه المرأة، فأجابتها بكل ثقة: " ذهبت لأمشي قليلا في بولفار البلاد، إنني أحب أن أتمتع بمنظر ذلك الوادي الصغير، خاصة وأنني كنت متعبة من استفزاز ذلك الرجل".

ترد عليها جانين: " مَنْ... برنار موشيه؟؟".

آمال: "نعم ولكنني اتفقتُ أن نتعاون معا لأجل إثبات أن نشاطات الفرقة سليمة، لا علاقة لها بالتطرف الثقافي".

جانين: " حقا...أ هذا ما اتفقتم عليه؟".

آمال أجابتها إجابة سريعة عن ذلك محاولة الهروب من حديثها السخيف، لأنها في الواقع لم تحترم ذكاء تلك المرأة الفلسطينية أدنى احترام، فهل كانت لتصدق أن جانين لا علم لها بما حصل بينها وبين برنار، إلا أنها تجاهلتْ غرابة ذلك الموقف وانسحبت منه بكل هدوء...

من بعد الكثير من الجلسات التي عقدتها آمال مع برنار موشيه، للاتفاق حول الخطط الموضوعة لسير العمل الذي تقوم به لأجل الدفاع عن قضيتها،

فاجأتها الأيام برحلة نحو تل أبيب، مدينة فلسطينية محتلة، تل من تلال الربيع أين تفاجأت كثيرا بالرجوع إلى ارض الوطن، التي خرجتْ يائسة منها، ذات يوم نحو مشوار غريب حافل بالألم الطويل...

قالت آمال يوما: " وداعا يا فلسطين...؟"و لكنّها عادت إليها، حيث خرجت منها عازفة راقية لموسيقى الشعر الحزين وعادتْ إليها وهي أَمَة لمتاعب الغرباء، حيث تفاجأتْ عندما دخلت عليها جانين وفي يدها أوراقها الشخصية التي سرقتْ منها ذات ليلة، فأصبحتْ بذلك تسايرهم وهي تفهم كل الفهم ما الذي يريدون الحصول عليه...

لم تكن جانين أبدا ناشطة بحقوق الإنسان، ولم تُسرَق آمال ذات يوم بمحض الصدفة، فكل ما حصل لها كان منسقا ومرتبا من طرف جهات عليا، اصطادت آمال منذ دخولها سويسرا، محاولين الاستفادة من قدرتها وقوتها التي تفتقدُها الكثيرات من النساء، فلِمَ كانت رحلتها نحو تل أبيب دون غيرها من المدن الأخرى؟ بحجة أنه يوجد هنالك مجموعة من ممثلي الصحافة العالمية والذين يهمّهم تغطية الحدث، فكانت أعذار جانين وتفسيرات موشيه أقبح بكثير من ذنوبهما وأصبح بذلك البرستيج الموضوع بين آمال وهؤلاء لا معنى له...

إنها خدعة من صنع المخابرات الإسرائيلية، حيث أن تلك السيدة الراقية العطوفة لم تكن سوى عين من عيون الموساد النشيطة، التي تصطاد عملاءها أينما كانوا وحيثما وجدوا، وتختلق لهم مواعيد اللقاء وتصنع أقدارهم، وتزيِّن المصادفة بأكاذيب خبيثة ومضحكة، لَمْ تخْفَ أبدا عن فكر آمال التي ظلت

متفطنة، غير مانحة أدنى ثقة للمرأة التي مدَّت لها يد العون وأغرقتها في خيوط الحنان والعطف اللامتناهية...

موعد جديد مع المطار، كان يوما ممطرا، غريب الملامح، لا شمس فيه ولا ضياء، جوّه يليق بامرأة قادمة من وإلى عالم الأحزان...

موعد آخر مع الأصيل، توجهتْ آمال نحو مصعد الطائرة والشمس ترقدُ في أحضان الأفق الأحمر، محاولة أن تهدأ من ضوضاء ما شهِدته في أيام البشر، أيام الشقاء والحياة التي لا معنى لها، ولا مغزى منها سوى أنها أوقات نسايرها مع مرور الزمن...

وقفت آمال اليوم مبتسمة على غير عادتها، وكانت أنيقة جدا في تلك الصبيحة، بجمال المرأة الفلسطينية الذي زادها عفة وشموخا، في موقف يختلف كثيرا عن موقفها الأول، عندما ودَّعت جبران ومارسيل ذات يوم، وهي تحبس الدموع في عينيها المرهقتين ليس كما هي تبتسم في هذه الدقائق...

اِلتفتتْ تحدقُ فيهما من بعيد، جانين وبرنار موشيه يقفان واحدا جنب الآخر، يلوِّحان لها وهما يصطنعان تلك الابتسامة الخبيثة، شتَّان بين الموقفين، فما أجمل تلك الوقفة التي مرَّ عليها أكثر من ثلاثة أعوام، وقفة جبران ومارسيل التي كانت مفعمة بالصدق، بالحب الحقيقي، وبعاطفة الوطن الصادقة والمنكسرة، فاستدارتْ الحسناء نحو باب الطائرة، وهي تقفُ بين تاريخين مختلفين، بعيدين تماما، لا تشابه بينهما، كموقف الملائكة أمام غموض الشياطين، فاستكملتْ طريقها وهي تبتسم.

جلست آمال على مقعدها، وهي تلف رباط العنق البني حول رقبتها الجميلة، ثم تمسح بأصابعها ذلك البخار من على زجاج النافذة...

تحدق في الفراغ المحيط بالطائرة، وهي تستغربُ من هذه القوة الغريبة التي أصبحت تملأ صدرها من بعد الكثير من لحظات الضعف والخوف، فكم هو جميل مشوار العودة إلى الوطن... بقدر بشاعة مشوار الاغتراب عنه.

ظهرت آمال اليوم في ثوب امرأة أخرى، امرأة تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل أربع سنوات

امرأة تعلمتْ من سنين الغربة ومن صقيع الشوارع، من مظاهر البشر الغريبة المتبدلة، من فقدان الأمل وصعوبة اليأس، من كل ما كان مريبا في حياتها...

ظهرتْ اليوم وكأنها صديقة للقدر الذي ابتسمتْ له رغم كل متاعبها وأزماتها، فقالتْ له شكرا من عمق جراحها التي حضَّرتها لمدرسة أكبر تسمى الحياة...

ذابت الشمس في قالب السواد المنصهر، وحلّ الليل بظلامه الذي تضيئه لألأة النجوم، وآمال لا زالت جالسة مع نفسها، كلاهما تمعن النظر في الأخرى فهل وجدت نفسها اليوم بعد طول غياب...؟

كان يبدو عليها أنها متغيرة، وهذا ما لاحظته جانين وتناقشتْ فيه كثيرا مع موشيه، فزاد خوفهم ووضعوها تحت المراقبة، هنالك في زاوية الطائرة رجل غريب الملامح يحدقُ فيها من بعيد محاولا استقراء أفكارها وكشف الحقيقة المختبئة تحت غطاء الهدوء المستتر...

عربيات إسرائيل

وصلتْ اليوم إلى تل أبيب، كانت باردة الملامح، لا خوف يبدو عليها، أقامت بفندق من أفخم فنادق المدينة، باشرت أعمالها معهم على أساس أنهم من أسرة الصحافة الدولية، كانت تقضي مواعيدها معهم بشكل لا يُطاق، لأنها تثق كل الثقة في نفسها فكانت أمامهم المرأة الصقر، والمرأة المبدأ، تبتسم أمام وجوههم ابتسامة ساخرة، تغطيها الجرأة اللا متناهية، لأنهم كانوا يدركون تماما أنها على علم بحقيقة عملها ولكنها تنتظر منهم تصريحا بذلك فكانت الأوقات تسري بلا طعم أو إثارة...

في تلك الأمسية بينما كانت آمال تصعد الأدراج نحو غرفتها، كان باب الغرفة المجاورة لها مفتوحا نوعا ما وذلك الرواق فارغ، لا حركة فيه سوى صوت نقرشة حذاءها على سجاده الأحمر، سمعتْ حينها حنجرة امرأة تشدو بأنين، يدل على مأساتها، أنين يلفت الانتباه كثيرا، فأصبحت آمال تمشي ببطء وهي تحاول أن تستوعب كلامها:

" تفضل وأعني على الموت، لأنني أصبحت غير قادرة عليها لوحدي حتى لا أهين بجسدي الملوث ارض احتوت رفات الجدود..."

ثم عادت تقول وهي تخفي وجهها من الخجل الممزوج بالعار: " إنْ ترني اليوم ماشية في طريق الفجور فقد كنت يوما بعيدة عنه جاهلة به، وكان أبوان شريفان ينيران دربي بضياء النصح والإرشاد وكانت لي أخت وكانت..."ثم

تشهق شهقة كبيرة يكون الصمت أبلغ من وصفها قائلة بعدها: "فهل يعلم أحد أين أختي...؟ لقد هداني أبي نجدا للحياة الكريمة المجيدة، فربَّاني على الدين والخُلق، وعلمني الإيمان بالإله وحب الوطن، وأطلعني روائع الأدب والفنون، وغرس في روحي التي ماتتْ بل تلك التي اغتالتها مدافع الحرب وأيادي الظلم حنين العروبة العذب، راجيا لي مستقبلا مليئا بالعلم والمعرفة والدفاع عن القضية...

لقد قتلوا أمي يوم الواقعة أما أبي فهرب بي وبأختي وانطلق يعدوا حتى لحقوا به، فجعلوا يضربونه بأعقاب البنادق وبرصاصها، حتى سقط وارتوت الأرض من دمائه ورحتُ أتلفتُ وأنا أكاد أجن من الذعر والخوف، وأنادي أبي...أبي، فشدته نبرات صوتي المبحوح وتقوى بعزيمة الروح الأبوية، ولكنه ما كاد ينهض حتى سقط صريعا، إذ أنه كلما فشل يتذكر أن ابنتيه سوف تكونان من إماء اليهود، ومن ارخص طبقاتهم فيستقوي من جديد، وظل كذلك ونحن نتلفتُ عليه حتى أضحى جثة هامدة في سكون الحرب وضجيج القصف... كم هذه الساعة عويصة تشكل بداية آلامي وضياعي هنا في دروب الشتات، فأين عينا أبي لترياني...؟ لترى كم أصبحت رخيصة بضعف مني وبقوة من الأيام؟؟ فلربَّما هو قد مات واستراح، ولكن ما أصابني اشد وأقسى من زمهرير عواصف الموت في جسد اعتاد الهدوء طويلا... أنا سَلَبَتْ مني الموت بحكمها الظالم أُمًا حنونًا وأبًا حالمًا، ودستْ الأقدار أختي ذات الثلاثة عشر عام بين أيادي الصهاينة اليهود، بل وخلف أبواب المجهول التي لا أقوى على استكشافها... أما أنا فحاولت الهرب وعَدَوت من دون حذاء على ارض مغتصبة مليئة بالأشواك

والحجر، ولكنهم لحقوا بي وسحبوني على طول ذلك الطريق، وعندما أكثرت الصراخ ما أحسست سوى بغرز إبرة في يدي من بعدها ما شعرت بشيء، إلى أن جاءت لحظة الحسم التي أتت بي إلى هنا... عندما وجدتُ نفسي متكشفة ساقطة على الأرض... وهكذا غَدَوت أنا ومن معي من نساء الحضيض الأسفل المتدني، المفرغ من الروح والقيمة وحتى الإنسانية..."

عرفت آمال فيما بعد أن هذه القصة متعلقة برجل فلسطيني، كان له صديق من أعضاء اللجنة الدولية سأله أن يأخذه إلى تل أبيب لعَّله يجدد عهدا ببلاده...

وصل الرفقة إلى تل أبيب، ونزلا في فندق عملاق المبنى...كثير الخدمات ومن بينها أن يهدوا كل واحد مقيم في إحدى الغرف، واحدة من أجمل الفتيات الموجودات هنالك، لتكون رفيقة له وقد كنَّ من اللواتي يغار الجمال من حسنهن، بارعات المظهر... جميلات القوام...

توسط الليل في مسيرته المظلمة وصاحب هدوءه بهاءً وهيبة... فتمثلت للرجل فتاة من أجمل الجميلات... وصوَّر منطق الشيطان له أنه إن نال امرأة من اليهود، وكأنه انتصر في غزوة لبني صهيون بل وفي عقر دارهم... وفي لحظة أخرى بدَّلها الزمن، هدأ الرجل الفلسطيني بمجرد أن حدقت في عينيه تلك الحسناء وكم كان ذلك الشعور غريبا وعسيرا...

وقفتْ الفتاة تنظر إليه وهي تستغرب حالته، فقد كان واضحا على ملامح وجهه كل مكبوتات صدره التي تمزج بين الحزن والألم...ساد الصمت وخيَّم الهدوء... لا حركة في الرجل سوى بؤبؤ عينه، ولا يسمع في أجواء تلك

الغرفة سوى تنهيدات عميقة من صدور أتعبها الملل والغربة ومعاني الحسرة... فأقدم الرجل متجرئا وسأل عن أصلها وهل هي عربية...؟؟ فارتعشت مفزوعة من شدة خوفها وأدارت عينيها الجميلتين نحوه وقد اسوَّد وجهها وأصبح غائما، غائبا في الأفق البعيد... ثم رسمت على وجهها الجميل ابتسامة رائعة، ميتة منذ أمد بعيد وسألته إن كان عربيا هو أيضا...؟" فرغم خوفه الذي كان واضحا عليه إلا أنه خاطر وأجابها " نعم...أنا عربي"، وهو متردد بين شعور الخوف منها والعطف عليها... فاقتربت منه وهي تجلس على ركبتيها قائلة" نعم.. أنا عربية... من بلدة كذا ومن العائلة الفلانية ومعي هنا أكثر من مائة من البنات العربيات..."ثم طأطأت رأسها ونزلت روافد الدموع على وجنةٍ أتعبها السهر وعذاب الأعداء...

مسك الرجل بيديه الاثنتين أسفل رقبته، وكأنه يحاول فك حبل الانتحار... وخنجر مسموم في سبيل العروبة والوطن يرشق بين ضلوعه... مغروس في قلبه علَّه يحيي فيه بعض معاني الوفاء أو بقايا الانتماء... ثم انحنت أمامه وأخذت تقبل يديه، ثم أرادت النزول لأسفل رجله لتقبلها متوسلة إليه أن يأخذها معه قائلة: " خذني معك إلى الشام... إلى الأردن... إلى الصحراء... إلى أي مكان بعيد مختلف عن هنا..."

كانت الحسناء تقول كلاما معبرا يختلج الصدر كعاصفة هوجاء، ويجعل أفق العروبة ضيقا منقطع الأمل... لم يكن في استطاعة الرجل الفلسطيني أن ينقذها باصطحابها معه إلى حيث يقيم، لأن ذلك ممنوع بقواعد سنَّها اليهود على ارض ليست لهم... إذ أنه لم يقترب منها خطوة واحدة، بل شبرا واحدا

في حينما يعتقد من يدير الفندق من اليهود أن هؤلاء الرجال من أسعد ذكور الدنيا وأبهجهم، ولكن التقاء القلوب العربية على كأس المرارة الواحد والجراح المشتركة، هو ما صنع منهما رجلا كئيبا ينظر بحسرة لامرأة غريقة في الأحزان، وقد رحل الفلسطيني عن ذلك المكان الأليم حاملا في وجدانه كما هائلا من الشجون التي لا نهاية لها... لأن المرأة العربية قد أراق اليهود دماء عفتها، وصنعوا من كثرة عُقدهم رجالا على حساب شرفها، وذلك لأن ذكور القبيلة العربية لم يريقوا دماءهم دفاعا عن الأنثى العربية وانه لعجيب حقا أن نكون هكذا اليوم وقد حرر عنترة العذارى وأقام العرب القدامى حروبا بأكملها لأجل كلمة قيلتْ عن امرأة...

إن المرأة العربية اليوم أضحت ضائعة في بلاد السلم والحرب... لأنها في بلاد الحرب تغتصب وتجوع، تموت وتتشرد، كما أنها في بلاد السلم تعاني مجاعة في أفكارها وانعزالا عن واقعها المرير، وفي كلتا الحالتين تظل أمَة للسلاح وللعولمة... ففي الأرض المحتلة التي تنزف قلوبنا جراحا إكراما لها، تبكي المرأة أوجاعها من فقدان الوطن وفقدان الحبيب، وفي مكان آخر تَغتصب خصوصيتها الفيديو كليبيات والتقليد الأعمى، وكأنها تباع وتشترى كالبضائع والسلع ولربَّما أحيانا أرخص من ذلك بكثير... فرحم الله أمة نساؤها جاهلات، بمعنى يختلف كثيرا عن معاني الأمية، ورجالها يصنعون من السلام استسلاما وينتظرون من حقول اليأس بيادر جدية...؟

أصبحت آمال أكثر من تائهة، من عمق أحزانها التي زادتها ألما وأوجاعا قصة تلك الفتاة العربية التي غطت الدموع جمالها، وقتلت الأيام أحلامها مع مرور الدقائق البطيئة...

قضت من بعد ذلك ليلة كاملة وهي واقفة على أطلال تاريخ العرب، لا تدرك من أين تبدأ؟ ولا عند أي نقطة تنتهي...؟

كان طعم الساعات مرٌّ كالعلقم، ومحطات القرون الأسطورية لا معنى لها اليوم سوى الذكري الجميلة الخالدة، التي تشكل وساما يغطي به الإنسان العربي فراغات أيامه الراهنة...

استيقظت آمال من أحلامها الجنونية في يقظة الأوهام، كان الفجر يتنفس محاولا محو ظلام الليالي، الذي كاد أن يقضي على أمل بزوغ ضيائه الجميل، وهي تحدق من تلك النافذة على مدينة بهية الطلعة أنيقة الهندام...

كانت الأسرار تطوف حول عينيها الحوراوتين، وهي تضع خطط المستقبل القريب، تفكر في الانتقام منهم، فهو الحل الوحيد لها ولغيرها من البؤساء الذين يروون بدموعهم عطش صحراء الوطن البعيد، فإذا كانت تنتظر في أيام مضت فرصة تسمح لها بالسقوط في أحضان المخابرات الفلسطينية، فإنها اليوم أصبحت تبحث عن تلك الفرصة وتحلم بأن تختلقها هي لنفسها، رغم أن طريقة الاتصال بهم صعبة للغاية في ظروف كظروفها، لذلك أصبحت تأخذ وقتا كافيا للتفكير في قراراتها الحاسمة، لمشوار ابتدأته بالعشق الحزين والبحث عن حبيب مغترب، وسوف تنهيه في واحد من أروقة السياسة والجوسسة، فمن كان يقول أن آمال سوف تنتقل مع الأيام من لحن قيثارتها نحو نغم من مواويل النضال السياسي الحافل بالمخاطر والمفاجآت... !

لقاء الرعشة

عادت اليوم إلى مطار جنيف، من بعد مرور قرابة نصف شهر على وجودها في تل أبيب، كُشِفَت كل أوراق اللعبة وسقطتْ جميع الأقنعة الغامضة، وأصبحتْ تتعامل معهم كعميلة مبدئية من عيون الموساد، ولكن كل ما لم تستطع يوما إتقانه ولا إقناعهم به، هو أنها قِبلتْ عروضهم المادية المغرية بسهولة، كان الأمر غريبا بالنسبة لهم، وغير ملعوب بالشكل المطلوب من طرف آمال، ولكنهم كانوا يدركون تماما مدى قوة هذه المرأة لذلك عليهم استغلالها، مقابل كل الحذر من لحظة ثورانها وانقلابها ويكون حينها مصيرها الموت، كغيرها ممن تعاملوا مع هذه الشبكة الخطيرة.

في يوم من أيام آب، خرجت آمال صباحا من بيتها الخاص بأحد اكبر شوارع جنيف، واتجهتْ نحو وسط المدينة ربما لأجل قضاء حاجياتها، والتنفيس قليلا عن روحها المختنقة، فقد كان يظهر عليها تفاؤل كبير بهذا اليوم الجميل ربما قد تجد فيه ما يغير مسرى حياتها الأبدي، ويحل صعوبات وقعتْ فيها منذ شهور عديدة...

ركنت سيارتها على الجهة اليمنى لموقف العربات الصغيرة، واتجهتْ نحو وسط الطريق محاولة اجتيازه إلى الرصيف المقابل وإذا بها سيارة سوداء تقوم بمداهمتها مداهمة حقيقية، ألقتْ بها مغما عليها على الأرض، فتوقف صاحب السيارة مفزوعا ونزل برفقة رجلين كانا يركبان السيارة معه، وهم يتساءلون عن

اقرب مستشفى يمكنهم أخذها إليه، فحملوها مسرعين وقد كان الناس يلتفون بقلب الحادثة محاولين الاطمئنان عليها...

استفاقت آمال بعد ساعات، وهي تشّد رقبتها من الخلف محاولة التخفيف من ألم شديد أصابها، وعندما فتحتْ عينيها وجدت نفسها في مكان مظلم، ليس فيه إلا ضوء خافت هنالك في الزاوية، ثم رفعت عينيها حول رأسها يمينا وشمالا لتجدَ رجلين يقفان بجانبها بصمت كبير يكتمُ الأنفاس... يحدقان فيها فأرادت النهوض بسرعة وهي في حالة من الرعب لما أصابها، وإذا بها تجد يديها مكبلتين ملتصقتين بذلك السرير الحديدي وكذا رجليها، فهدأت للحظة واحدة لتبدأ الصراخ في وجوههم سائلة ماذا يريدان منها...؟ لم يتحركْ واحد منهما ببنت شفة وأصبحا ينظران إليها بقوة وحِدّة اكبر، ففهمتْ حينها انه لا جدوى من البكاء والصراخ فهدأتْ من جديد هدوء الخوف والارتباك، وجبينها يتصببُ عرقا...

انصرف الرجلان واحدا تلو الآخر، تاركين آمال في حيرة ودهشة من موقفها المريب، وقد زاد خوفها وقلقها كثيرا من خلال نظراتهما التي كادت أن تخنق أنفاسها، كان الحقد والغل باديين عليهما، ثم دخل عليها رجل آخر أسمر الملامح، أخذتْ تحدق فيه خائفة من ردة فعله اتجاهها وقد كانت الحدة تغلف نظراته، وتطوف شياطين الانتقام بأحداقه الحوراء ثم أخذ ينظر إليها وجها لوجه، فاحتارتْ الفتاة في جفونه التي لم تحس أنها غريبة عنها

قال لها: " عليك أن تستعدي"...؟

رفعت الحسناء صوتها عاليا تسأله من يكون وعن المكان الذي هي فيه؟ وقد غطى البكاء كلامها الذليل تحت شبح القوة وسوط الوجل، ولكنه لم يتكلم معها هو الآخر وانصرف من أمامها دون تفسير واحد عمَّا يحصل لها... أصبحت حينها لا تدرك أين تذهب، فكل يوم في حياتها صار أصعب، وبدَّلت الحياة أشواك بستانها الذي كان أخصب، فحملت لواء الحزن على هذا الكوكب، راضية بما يصنعه القدر، غير عارفة بما تكنه الأيام.

مرَّ عليها أسبوع كامل دون أن تدري أين هي موجودة، ولا مع من تتعامل؟

في كل يوم، كان يُحضر لها رجل مقنع ما تحتاجه من أكل وماء تتناوله أمام عينيه اللتان تحرسانها ضد أي تحرك تقوم به، ونظرته التي تقضي على أملها في الغد الجميل.

كانت تتناول أكلها ممزوجا بذوق الدموع ونكهة الأحزان، وهي ترتجف فيسقط من لقيَماتها ما يسقط ملطخا ملابسها، وهي غير مركّزة في طريقة أكلها فتحدق في صحنها تارة، ثم ترفع عينيها تارة أخرى وتسترق النظر اتجاه ذلك الرجل، خوفا من ضربة مفاجئة قد تقضي عليها وتزيد في آلام الكدمات على جسدها النحيل، بعد ما شهدته من أقسى فنون الضرب الصامت والقتل اللذيذ البطيء دون كلمة واحدة تلمح للخطيئة التي ارتكبتها، لتستحق جراءها كل هذا العذاب أو عبارة تدل على هوية هذا الجلاّد، الذي منح نفسه حق المحاكمة.

في يوم الخامس والعشرين من شهر آب كانت آمال مرمية هنالك في الركن المظلم، وفجأة بدأتْ أصوات أولئك الرجال تتصاعد شيئا فشيئا، وتقتربُ من باب غرفتها الذي ُفتِح لتجد أنهم اصطفوا يمينا وشمالا على طول ذلك الرواق، وهم في حالة استعداد وتحية لاستقبال رجل عظيم لا زال لم يظهر...

مرّت دقائق قليلة والكلّ في صمت شديد وفجأة، ظهرت تلك الشخصية المرموقة، رجل ببدلة سوداء أنيقة المظهر وبمشية مختالة تغطيها القوة والكبرياء...

كانت آمال تحاولُ رفع عينيها المرهقتين اتجاه ذلك الضوء، الذي لم تستطع تحمله لكثرة بقائها في الظلام لتعرفَ حقيقة مشهدها المخيف...

دمعت عيناها من لمعة الضياء، وربما من رعشة اللقاء به إلى أن وصل إلى مدخل غرفتها، لم يبقَ إلا اثنين من الحراس بعيدين عن الباب نوعا ما، ليقوم ذلك الرجل بإغلاقه مستعينا بحذائه الأسود ذو الأنف الطويل، ثم اتجه في خبايا تلك الظلمات مشعلا ذلك المصباح الكهربائي الصغير...

لم تكن ملامحه واضحة، كان مثيرا إذ أنه يغطي نصف وجهه بتلك النظّارات اللامعة السوداء، نزع معطفه الأسود ورماه على ظهر الكرسي المقابل وعندما استدار كان على جانبيه مسدسان يلتصقان بمحيط خصره العلوي، فزاد رعب آمال بمجرد رؤيتهما وأدركتْ أن الموت قد أضحى قريبا ُقرْبَ أصابع هذا الرجل من زناد مسدسه.

جلس أمامها وهو يتفقدُ حالة مسدسه، فأفرغه من رصاصاته واحدة تلو الأخرى، ثم عاود شحنه من جديد وأصبح يتأمل فيه من قريب ويظهر براعته

في طريقة استخدامه بكل قوة وثقة، وحينها أدركت آمال انه يبعث لها رسالة بخطورة وضعها الذي غالبا ما ستُعاقب عليه أشد عقاب...

مرَّت قرابة العشرين دقيقة دون أن ينطق واحد منهما ببنت شفة، آمال لم تتكلم لأنها تعودتْ منهم على إسكاتها بمجرد ما تنطق، فكانت هادئة هدوء الخوف المستتر تحت غطاء الضعف، أما ذلك الضابط الوسيم فكان صامتا صمت القوة، صمت يسبق العاصفة، لأنه حينها سيّد الموقف والكلمة.

حان وقت المحاكمة، رفع عينيه فيها فجأة وأصبح يمعن النظر أما هي فكانت بدورها تنظر إليه، محاولة كشف خبايا نفسه الغامضة فقال لها بكلمات متقطعة يملؤها الغرور:

" آمال... آمال ياسر، من مدينة غزة الفلسطينية، خرجتْ منها في السادس من تشرين الأول، نحو عكا ومن ثمة إلى جنيف

هل تعرفين هذه السيّدة...؟".

كانت آمال تنظر إليه ذابلة، مندهشة بمجرد ما كلَّمها باللغة العربية، بل كانت لهجة فلسطينية،

كادت الفتاة أن يغمى عليها، فصرخ في وجهها: " طلبت منك الإجابة هل تعرفين آمال ياسر؟؟"

-قالت وصوتها يرتعد من شدة الخوف: " نعم... أنا آمال ياسر...؟" وكانت تبكي حينها غير مدركة إذا ما كانت إجابتها مناسبة أم لا، لسؤاله الكبير الذي فيه الكثير من المعاني والعِبَر...

-نطق قائلا: " ولكنني لا أظن أنها هي التي تَمْثُلُ أمامي، فأنا أحققُ مع خائنة من عملاء الموساد أليس كذلك...؟؟"

فاجأها بهذه العبارة، لا لأنها لم يكنْ في حسبانها أن المخابرات الفلسطينية على دراية بوضعها في شبكة الموساد، ولكن نعتها بالخائنة هو ما لم تفكر فيه يوما، وهو ما أقفل أبواب الدنيا في وجهها، وجعلها مفزوعة منه لا تدري ماذا عليها أن تقول:

" أنا لم أكنْ خائنة يوما، لم أكن خائنة، اقتلوني ولا تردّدوا ذلك على مسامعي..." ثم بدأت تصرخ في وجهه، رمت كل معاني الخوف قائلة: " كنت انتظركم... لم أكن أعلم كيف أتصل بكم، لقد وضعوني تحت المراقبة وكأنني في إقامة جبرية لعبيدٍ هم أسيادهم...

صبرتُ عليكم شهورا طويلة الألم وأنا أنتظر منكم تلميحا واحدا، كنت مضطربة، خائفة من ردّة فعلهم اتجاهي، هم يريدون عملي معهم ولا يمنحونني أدنى ثقة في المقابل...

لم يتركها الضابط تكمِّل كلامها قائلا:

" نعم... حقا وما الذي يقوله الخائن لحظة إلقاء القبض عليه، هل سوف يعترفُ بخيانته؟؟ عليكِ أن تعلمي أن أخطاء الإنسان محسوبة عليه، والخطايا من هذا القبيل لا تسامح فيها ولا رأفة، لقد حان وقت الحساب فاستعدي؟" وغادر الغرفة مسرعا بعد إطفاء ذلك النور الضئيل، فترك آمال بين أربعة حيطان حائرة، مريرة الإحساس بالفشل وعدم القدرة على بلوغ هدفها.

كل ذلك تجرعته في واحد من أقداح الحسرة والدهشة، من نعتها بالعميلة والخائنة لتاريخ الوطن المقدّس، فكم كانت الأيام ظالمة معها؟ وكم كانت قاسية...؟ آمال التي عاشتْ مع فلسطين واحدة من قصص الحب الخرافية، من قصص عشق الأوطان الأسطورية، صنفتها اليوم سلطات السياسة في قائمة الخونة الذين تلعنهم عصور التاريخ جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر...

فُتِحَتْ تحقيقات كثيرة معها، دافعت فيها آمال عن حقها في الحياة رغم عدم تصديقهم لها...

كاد أن يقرّر موتها الفلسطينيون أنفسهم، لولا تدخل ذلك الضابط الذي قام بتعذيبها يوما، وبإهانتها واتهامها بالخيانة الكبرى لتاريخ الوطن ومصير الشعب المشتت، ولكنها واجهتْ قوته بضعفها البريء الغريق في الصدق، الذي كان واضحا على عينيها فأصبحت تكلّمه بهدوء كلّما ثار عليها غضبا، وتدافع عنه لحظة اتهامه لها بالعمالة قائلة:

-"أقدِّر موقفكَ سيّدي، لأنك لا تفهم سوى لغة الدليل أما أنا فعلمّتني أنوثتي العاطفة، وعلمّتني وطنيتي صدق الإحساس، فإنْ واجهتموني بالموت، سأكون سعيدة راضية بقدري الذي أرسله الله لي على يد أبناء موطني..." ثم تبتسم والدماء تغطي وجهها وشفتيها: "آه... لو تدركوا كم أشعر الآن بالأمان، كنت أخشي أن تغتالني أيادي الغاصبين بعيدا عن أرض الوطن، ولكنني سوف أموت بيد من يُمثلون سياسيا وعسكريا وطنا أحبّه ولم أخُنْه يوما ولو بزلّة لسان...؟

إنكم لا تعانون هنا في دروب السياسة أو المخابرات كما نعاني نحن في غزة الأحزان، مُعاناتنا تختلف كثيرا عن باقي الاتجاهات والفصائل، نحن نموت في كل يوم ونتعذب، نُغتصب في ضوء النهار وإنني أتخيلُ في كل لحظة، كيف ساءت الأحوال أكثر... فأبعدتني إلى الأبد عن وطن أحبّه، كنت أشتاقه ولا زلت، وغرّبتني عن هواء كنت استنشقه كعطر فاخر يتسابق عليه الأثرياء هنا بآلاف الدولارات...

أقتلوني اليوم وهو عقاب استحقه على فشلي في دفاعي عن قضيتي، فأنا لستُ خبيرة مثلكم، لا أملك القوة التي بحوزتكم ولا خطط تفكيركم الجبار، لا أملك سوى عاطفة صادقة كالشجون، وهي الوحيدة التي لم تجردني منها الأيام ولن تجردني منها أبدا، من بعد ما أخذتْ مني آمالي وأحبائي، وأخذتْ مني موطني... أقتلوني إذن وسوف أسامحكم غدا أمام العدالة الإلهية، لأنكم تطبقون المبادئ التي أخذتموها خلال سنوات تكوينكم في صفوف المخابرات، أما أنا فأطبّق مبادئي الفطرية التي خُلقَتْ معي، وعلَّمتني عشق الوطن وحب الحرية ولكنني نسيتُ حينها أن التاريخ لا يبنى على العاطفة...

أرجوك سيدي لحظة إعدامي، أريد منك وعدا لأموتَ وبي بعض الأمل النحيل، بأن يعود أبنائي الذين لم أنجبهم يوما في الغد الجميل، بعد يوم... أو سنة وجيل إلى أرض حُرمَتْ منها أمّهم الوهمية، فلئِن متُ، فتلك المدينة بها الكثيرات والكثيرون ممن يشبهونني وأشبههم في حب الوطن والثبات على الإخلاص له...".

ثم سقطتْ أرضا وفارقتْ وعيُها، كان الضابط مراد ينظر إليها مستعجبا من كلامها القوي الضعيف وكأنه لا يصدق أذنيه فيما يسمعه، موقف غريب أضعَفَ واحدا من أكثر ضباط المخابرات الفلسطينية ذكاء وخبرة...

سقط مراد على ركبتيه أمام جثتها الهامدة، ونزلتْ دموع نحيفة من عينيه الجميلتين المبرّقتين، وهو يحاول أن يصحو من هذا الكابوس العسير، فآمال كانت تلك المرأة الوحيدة التي جعلت مراد الإنسان يهزم ذلك الضابط المتعنت...

مسح بيده على جبينها الملطخ بالدماء وأبْعَدَ شعرها المتناثر على وجهها، ثم أسندها لتجلس متكئة على كتفه، كان الموقف مريبا، ظهر عليه ندم كبير، فأحسَّ للّحظة شموخ ووطنية هذه الشخصية التي يتعامل معها، بل يقوم بتعذيبها، ثم بدأ يفتش في جسدها الجميل عن بقايا الألم التي الذي سبّبه لها، لم يكن ينقصه إلا التأسف والاعتذار أمامها، ولكنّه ما لبث يفعل ذلك بعاطفته التي أصبحت تفيض حنينا، بعيدا عن برستيج الضبّاط والعساكر، حتى دخل عليهما ضابط معاون له، فتفاجأ عندما رآه يضمّها إليه باكيا، متحسرا على الخطيئة التي ارتكبها في حقها، فتوقف قريبا من مدخل الغرفة، يحاول تصديق ما يراه، فاستدار مراد بوجنته التي بلَّلتها العبَرَات قائلا له: " احملها معي... واستدعي الطبيب فورا...؟".

فيرد عليه قائلا: "أليست هي العميلة التي سوف نقوم بإعدامها الليلة؟؟".

يصرخ مراد في وجهه: " لا تقلْ عميلة... فكل شيء سوف يتغير".

يُبَرِّق المعاون عينيه وهو لا يفهم شيئا، أما مراد فكان مستغرقا في التفكير في طريقة يصحّح بها صورة آمال عند القيادات العليا...

في الثاني من أيلول أفاقت آمال على صوت حذاء الممرضة، وهي تفتح شبّاك غرفتها، دخل ضياء الصباح الجميل المفعم بالأمل، لتسقط أشعة الشمس الذهبية على وجهها، لا لشيء، فقط لتدرك أنها لا زالت على قيد الحياة...

كانت قي حالة خوف بمجرد ما استيقظتْ، ولكنّها ما لبثت تفعل حتى هدأت ويد الممرضة تمسح على جبينها، محاولة إشعارها بالأمن والطمأنينة.

-تسأل آمال: أين أنا؟

-"أنتِ في المستشفى وأنا الممرضة المسؤولة عن رعايتك".

-"ما الذي حصل لي أشعر ببعض الألم هنا..." وتشير إلى جانب أنفها.

- تخفف عنها الممرضة: " لا تخافي سوف تكونين بخير... أنتِ الآن بأمان".

- تسألها آمال" أين أولئك الضباط؟؟ هل أنتِ فلسطينية؟".

- تبتسم الممرضة: " عليك أن لا تكثري من الكلام سيّدتي، فهذا أفضل لك بكثير، كل شيء سيكون على ما يرام".

عادت آمال إلى عالم الكبت الآخر الذي كان خيالها يسبح فيه، بفضل الإبَر المهدئة التي وُضِعَتْ لها في المصل وكذا المنوّمات...

مرَّ يوم آخر وهي في غيبوبتها، إلى أن عسعس ظلام الليلة الموالية فاستيقظتْ آمال قرابة منتصف الليل. لتجد نورا خافتا يضيء ديجور غرفتها...

على الأريكة المجاورة كان مراد يجلس جلسته المعتادة، متربعا على عرشه برجولة لا كلام من بعدها، وهو يحمل بعض الأوراق في يده...

كانت آمال هادئة ولكنّها ما لبثتْ أن تستدير لترى وجهه الأسمر في وسط تلك العتمة، لتبدأ بالصراخ محاولةً الهروب من أمامه، وتطلبُ منه عدم الاقتراب منها والخروج من الغرفة...

خاطبها الرجل بلطافة طالبا منها أن تعود لوعيها، وأن تكف عن الصراخ ولكن حَالَ ذلك دون جدوى، فهي كانت تخاف منه كثيرا لما شهدته على يديه من ذكريات سيئة للغاية، تذكّرها بكل أيامها العسيرة...

أتى الطبيب والممرضة يحاولان تهدِئتها، ثم أمرَه الحكيم بمغادرة الغرفة فورا، كانتْ آمال تتوسل لهم أن لا يتركوه يقترب منها أو يراها مرة أخرى، وهي في حالة يرثى لها من البكاء المبحوح...

أثارت حالتها شفقة الكثيرين وأوَّلهم ذلك الضابط الذي غيَّر فكرته كثيرا عنها، وأحسَّ بعمق الجراح التي خدش بها عاطفة تلك المرأة ملائكية النظرة.

بعد أن هدأت خرج الطبيب ليجد مراد واقفا خلف باب الغرفة، محاولا الاطمئنان عليها، فنصحه بأن لا يحاول مقابلتها مرة أخرى وإلا سوف تبوء

محاولة شفائها النفسي بالفشل، لأنها منهارة الأعصاب وحالة خوفها تزداد يوما بعد يوم...

تناقش مراد جليا مع طبيبها وأفهمه بأن ذلك من غير الممكن، لأن تأخر آمال في اختفائها عن عيون الموساد ليس في صالح القضية، خاصة وأن الظروف في الخارج مكهربة ومشتعلة حق اشتعال في البحث عنها...

تركَت آمال على حالتها تلك، فهدأت ونامت لساعات طويلة إلى أن حلّت ظهيرة اليوم الموالي، فدخل عليها مراد وفي يده باقة من الزهور، عربون صداقة ومحبة لفتح صفحة جديدة بينهما...

دخل عليها بينما هي مستغرقة في النوم، جلس إلى جانبها ففتحتْ عينيها بمجرد ما شعرتْ بوجود أحد ما بجوارها...

سقطت نظراتها على الضابط مراد كسهام جارحة، وهي تحاول كثيرا النهوض من أمامه أو الصراخ في وجهه، ولكنها أصبحتْ لا تملك القوة الكافية لذلك، فهي تحت تأثير شبه مخذر وضع لها لتهدَأ أثناء موعدها معه.

أمسك الرجل يديها النحيفتين محاولا بعث أمل ضئيل فيها، لمنحِها معاني الأمان والثقة، فكم كان ذلك جميلا، عندما غطتْ العاطفة والإنسانية موقف بين شخصين لا تفاهم بينهما، فهدأتْ نظراتها للتو وأصبحت تحدق فيه، تسأله بعينيها عن سرّ مجيئه، إذ أحسَّت أن بجعبته شيء جديد لابد من التعريف به

-"كيف أصبحتِ الآن...؟ حمدا لله على سلامتكِ".

تنظر آمال إليه غير واثقة فيه، وبقايا الخوف لا زالتْ تظهر عليها، يختصر الضابط كلامه قائلا: -"عليك أن تتعاوني معنا... نحن بأمسِّ الحاجة إليك، إذا طلبتْ منك فلسطين شيء، فهل سوف تتأخرين عن خدمتها؟؟ ونحن الذين أصبحنا نثقُ كل الثقة في وطنيتك الخالصة، التي أعطتنا درسا في حب الأرض، بعيدا عن مقاييس السياسة ومبادئ المخابرات...

عليكِ الظهور الآن أمام الموساد بحالتك هذه...؟" -يسكت قليلا ثم يستأنف كلامه: "هذه الكدمات سوف تعبَّر أمامهم عن كرهكِ للفلسطينيين... فلسطين التي فعلتْ بكِ مخابراتها ما فعلتْ وأجبرتكِ على العمل لصالحها، فأبديتِ موافقتكِ أمامها مقابل رجوعكِ إليهم بهدف الانتقام لكرامتك ولنفسك ضدهم".

يضع باقة الورود الحمراء بجانب ذراعها الأيمن، ثم يقبّل جبينها بكل تواضع قائلا: "فكّري سيّدتي جيدا... أرجوكِ" وينسحب من هدوء الموقف بكل ثقة.

تسقط دموع آمال من عينيها الجميلتين، لا تدري إنْ كانت دموع فرحة لبلوغ هدف ظنت انه تَاه من آمالها الضائعة، أم هي دموع الأسى الذي شهدته عقب سؤال مماثل طرحه عليها جبران ومارسيل قبل أربعة أعوام... أم دموع الحزن والمعاناة التي قتلتْها في اليوم آلاف المرات، فقد تحوّلتْ في غضون أيام قليلة من خائنة لعينة إلى رمزٍ للوطنية والنخوة، والتي أصبح لها دور كبير وفعّال في عمل المخابرات الفلسطينية، فما لبثتْ أن تفكر حتى أغمضتْ عينيها وعادت

لهدوئها مجددا، محاولة ضمّ تلك الورود إلى صدرها علّها ترتاح من شعورها الذي كان لا يحتمل...

مرَّت أيام وأيام وآمال في حالة من الدهشة لِمَا أصابها، محاولة استيعاب هذه الأفكار الخطيرة التي تعرضُها عليها المخابرات الفلسطينية، وبفضل تأثير ذلك الوسيم تم إقناعها أخيرا بضرورة حلِّها لهذا الموقف، الذي أصبح لها فيه دورا محوريا في الجوسسة والقيام بمختلف المهام...

دُرِّبَت في غضون ساعات طويلة على الكثير من الطرائق الخاصة، والتي أجادتْ بعضها فأبهرتهم في التعامل مع جهاز كشف الكذب مثلا، لأنها سبق وتدربتْ عليه كثيرا في جهاز الموساد...

في يوم الخامس والعشرين من أيلول... ها هي آمال تَمْثُلُ أمام بيت جانين بعد غياب شهرين كاملين عن الساحة...

أدخلها الحراس من باب الفيلا الخلفي، وهي ترتجفُ بردا والدموع تسقط من عينيها الجميلتين، ثيابها ممزقة ووجهها ملطخ ببعض الدماء، كانت حافية دون حذاء ورجليها قد مزقتهما الحجارة، أما وجهها ففي حالة خطيرة من الكدمات التي وجهت إليها...

استقبلتها جانين مسرعة وإذا بها تتفاجأ لحالتها تلك، خاصة وأن آمال احتضنتها مسرعة، وأجهشت بالبكاء قائلة: " أريدهم أن يموتوا كلهم سوف أذلهم كما فعلو بي... جانين اشتقتُ إلى حضنك الدافئ" ولأول مرة كانت الفتاة تجيد دورا ممتازا في تمثيل اللعبة المحبوكة لصالح الفلسطينيين.

أدخلتها جانين ثم صعدتا الأدراج معا إلى غرفتها في الطابق العلوي، جلستْ آمال على تلك الأريكة تكمل نُواحها على ما حصل لها، أما جانين فقابلتها هنالك تتفحص حالتها وتحاول تحليل صدقها من كذبها...

آمال تبكي ثم تعاود طرح رأسها على ظهر الأريكة الفخمة، لتلاحظ جانين أكثر ما شهدته من كدمات خطيرة على وجهها، وبعد أن هدأتْ قليلا تقترب منها جانين محاولة تفحصها، فتجد أنها فعلا متعرضة إلى ضرب شديد على وجهها، وكذا على أعضاء جسدها النحيف، وبمجرد ما تلامسها تقوم آمال بإصدار أنينها الحزين قائلة لها بأنها تتألم، ثم تقترب منها: " عليك مساعدتي لإذلالهم كما فعلوا بي... إنني اكرههم...اكرههم كثيرا".

ترد عليها جانين: "من هم؟ من فعل بك هذا...؟"

-"إنهم أولئك الأوغاد العرب... أحسن جزاء لهم هو الموت... لا حلّ غير الموت يشفي غليلي".

تنهض جانين مفزوعة من أمامها: " عرب؟؟ عن أي عرب تتحدثين؟".

تروي لها آمال قصتها بأسلوبها المشوق وتُوهمها بأن المخابرات الفلسطينية هي التي فعلت بها هذا لأنهم اكتشفوا أنها تعمل مع الموساد فكادوا أن يقتلوها لولا أنها أقنعتهم بكل صعوبة أنها سوف تعمل فيما هو قادم لصالحهم بوجودها في عمق الشبكة...

" لقد أمروني بأن أقول لكم أن مجموعة من المتشردين اختطفوني، وعاملوني بهذه القسوة إلى أن تمكنتُ من الفرار منهم..." ثم تكمل دور الهذيان وهي تحاول الاستراحة قليلا.

تتركها جانين وتذهب فورا لتهاتف برنار موشيه وبعض الشخصيات الهامة في الموساد.

حضر برنار موشيه وهو يلهث مرفوقا بمجموعة من الأطباء، للكشف عن حالة تلك السيدة الغريبة.

حلَّ الليل بظلامه على الدنيا، استفاقتْ آمال لتجدَ نفسها محاطة بكل أنواع الرعاية وجانين إلى جانبها تحاول مواساتها والتخفيف عنها. فتحت عينيها بصعوبة لأنها لا زالت في الحقيقة تعاني التعب والإرهاق، وهو ما أضفى على مسرحيتها جمالا خارقا وصدقا لا تكذيب من بعده، فابتسمتْ في وجهها جانين وقامتْ بتقبيل جبينها، إذ أن تقارير الأطباء أكدَّت ما كانت تقول وأكدّتْ أن الكدمات حقيقية، وأن آمال متعبة نفسيا للغاية،

يدخل برنار الغرفة وهو يحدق فيها من بعيد، ثم يقترب شيئا فشيئا فتقول له: "برنار أرجوك - تُقَبل يده- احمني من أولئك الأوغاد المتعبين، انظر ماذا فعلوا بي... إنني متعبة النفس، مرهقة الجسد... لا تبتعد عني كثيرا... لا تترك أياديهم تطولني".

مرتْ قرابة نصف شهر، واستعادت آمال عافيتها لتصحوا لأجل أداء مهامها العسيرة، كانت جانين تمنحها بعض الثقة كما هو الحال بالنسبة لقيادات

الموساد الموجودة على ارض سويسرا، إلاّ برنار موشيه الذي كان يراقبُ في تحركاتها كل كبيرة وصغيرة، لم يمنحها هذا الرجل أدنى ثقة حتى وصل بشكّه للمقولة: "تلك الفتاة العربية لا زالت تحمل رفات آبائها وأجدادها الذين طالما حَلِموا بالقضاء علينا"

عملتْ آمال مع الموساد لصالح القضية الوطنية الفلسطينية لمدة تزيد عن الثلاثة شهور، وفي كل مرّة كانت تخاف أكثر لشدة مراقبتهم، فكانت تقوم بإيصال معلومات كثيرة للمخابرات الفلسطينية كوصف مباني الموساد الحديثة بالتفصيل المُمِّل، شرح طرائق عملهم، الشِفْرات التي كانوا يستخدمونها، طريقة اصطياد عملائهم، ميزانيات الجوسسة الهائلة لضمان حسن سير العمل...

كانت الفتاة دقيقة في عملها، حيث أبدعت في هذا العالم الغامض رغم قلّة خبرتها،و استطاعتْ الحصول على الكثير من المعلومات التي فشل أحيانا في التقاطها أشهر الجواسيس وأذكاهم.

كان الضابط مراد الممثل الوحيد الذي تلتقي به من المخابرات الفلسطينية سرّا بطرق غير معقولة، كالكلام في الحمامات والمراحيض العمومية لأجل الكلام الجِدِّي في الخطط الموضوعة للتجسس على المخابرات الإسرائيلية، وأحيانا يلتقيان وكل منهما على يقين من أن العيون المخابراتية تراقبهما من بعيد وربما حتى من قريب، حيث كانا يفضلان الأماكن الطبيعية والمشي في الهواء الطلق، على الشواطئ الصخرية، حيث تترك آمال كل حاجياتها في سيارته السوداء المرسيدس، تتجردُ من حقيبتها ومن اكسسواراتها وكل ما هو ذو أزرار، حيث كانت تخاف الكلام في الأمور الحسّاسة والذي يمكن أن تلتقطه بعض

الأجهزة التي قد تدسُّها الموساد دون عِلْمها، ربما في أحد أزرار معطفها الكبيرة، في سوارها، في أقراطها، فكانت حذرة جدا لأنها تدرك جيدا مع من تتعامل...

بعيدا عن ضوضاء السياسة، انجذبتْ آمال كثيرا لذلك الضابط الوسيم ربما لأنها وجدت فيه بعض الأمل، بعض الشيء من بسّام، شفاء من حب مفقود... أما هو فلم يستطع مقاومة سحر عينيها الجميلتين، فكان كلَّما رآها لبس برستيجه العسكري، ربما لخوفه من جبروت أنوثتها التي لم يقوَ على تحملها يوما، أو لأنه مؤمن أن قصص الحب الخرافية دوما تبتدئ بمأساة تضفي عليها رونقا من الأحزان، فتلمع في عالم أساطير الحب جيلا بعد جيل كلمعة الدموع لحظة انهيار العشاق ولحظة الاشتياق...

تفاجأت آمال في يوم ما، عندما دخل عليها برنار موشيه برفقة امرأة جعلتْها الموساد مطبّا في دربها، راحاب كاستيل التي اكتشفتْ بمرور الأيام أنها سهى...؟ عندما تسللتْ إلى غرفتها سرّا لتجد بها صورا قديمة، ووثائق تدل بأنها ابنة مارسيل، نفس الرجل الذي ساعد آمال في الصعود على طول أدراج المستقبل الزاهر.

راحاب كاستيل من مواليد الستينيات، عاشتْ مع والدها إلى بلغتْ سن الشباب، ثم اختفتْ من أمامه ولم يعثر لها على أثر، لدرجة أنه يئس من البحث عنها، قيل بأنها اختُطفت أو أصبحت في عداد الأموات، إلا أن حقيقة ذلك لم تكن إلا سبب تأثير الفتى اليهودي الذي عشقته عشقا مبجلا جرَّها إلى دروب الجوسسة ضد قضية موطنها العادلة، بعد تغيير ديانتها إلى اليهودية...؟ التي اعتنقتْها لأجل الارتباط به.

هذه المرأة عملت كل ما هو ممنوع أو مباح لأجل الانتقام من الفلسطينيين، لأنها أحبَّت يوما ذلك الشاب الفلسطيني من مدينة يافا، والذي صدمها خبر زواجه بتلك الفتاة الفقيرة التي أحبَّها حتى النخاع، فأصبحتْ تحمل كل الكره بين ضلوعها لأجل الانتقام... فكم هذا الأمر غريب وهو الذي جعل قصص الحب تتحكم في جزء من مسار التاريخ، واحدة صنعتْ من آمال امرأة في أفق الحب والثورة وأخرى جعلتْ من سهى امرأة في حضيض الخيانة الوطنية...

نهايتي

في أواخر أيار من السنة الموالية، خرجت آمال لتلعب دورها في منتزه بعيد قليلا عن المدينة، أين كانت تبرمج نفسها عمليا وعاطفيا للقاء ذلك الوسيم، جلست على واحدة من الطاولات الحجرية، لتطلب كوبا من العصير تتناوله بكل حذر وعينيها تلتفتُ يمينا وشمالا...

بعد مرور ربع ساعة أو قرابة العشرين دقيقة، تأكدتْ آمال من عدم وجود أحد من أعوان مراقبتها، فتسللت نحو جناح الحمامات الخاصة بالزبائن لتدخلها بسرية تامة، ثم تفتح الباب وهي تسترق النظر إلى الخارج، فلا يظهر لها شيء سوى تلك مناظر الشلاّلات الاصطناعية الجميلة، تمشي متخفية خلف تلك الأشجار لتخرج من الباب الخلفي للحديقة، ومن ثمة إلى ما وراء سور النهر الأزرق لتجد خلف تلك الأشجار العملاقة الضابط مراد ينتظرها...

صنعتْ الطبيعة يومها موعدا جميلا وأضافت على جفاء السياسة رونقا من الحب الأصيل... كان يقف هنالك وآمال على بعد بعض الأمتار منه، بدأ رذاذ المطر يتساقط شيئا فشيئا وهي تقترب منه، فأطلق ابتسامته الساحرة وزيَّنها بنظرته السوداء المعبّرة، ألقتْ عليه التحية ومدَّت يدها إليه فصافحها:

-"كيف حالكِ...؟" وهو لا زال يشدّ يدها بيده.

- تجيبه بكل اطمئنان: " أنا بخير".

قال لها في ذلك اليوم على غير عادته: " اشتقتُ إليك... فقد طالت فترة غيابنا"، فابتسمتْ في وجهه ليدركَ أنها فهمتْ ما كان به من عاطفة جياشة اتجاهها، وحينها أحسّتْ بأمانٍ لا أمان بعده... فاستغربتْ لحال الدنيا التي ابتسمت لها من جديد، ولكن الأيام ما لبثتْ تبتسم في وجهها حتى غيرتْ رأيها، فهي لم تنتبه لوجود راحاب على السور العلوي لذلك النهر، كانت تحدق فيهما من الفوق ونظرتها تتطاير حقدا وغيرة، إذ أنها تعرفتْ على الضابط مراد فهو من رؤوس المخابرات الفلسطينية المتوفرة صورهم لدى الموساد، لأهميته الكبيرة وحنكته في عمله.

كانت راحاب تسترق النظر لئلا ينتبه إليها احدهما، أما آمال التي كانت تمسك يدي مراد بيديها الاثنتين، فكانت تتفاءلُ بهذا اليوم الذي هو بداية نهايتها مع الموساد، فسألته عن سبب اعترافه اليوم خصيصا بأشواقه، فابتسم ولم يجبها في الحين ثم قال:

-"ربما لأنك غبتِ طويلا، ولأننا لا نلتقي جديا إلا نادرا".

كانت تبدو جميلة جدا، فقد أضافتْ عليها كلماته التي أعجبتْها واستجلبتْ خاطرها، زركشة أنثوية رائعة في العاطفة والجسد، فتكلما كثيرا وضحكتْ ربّما منذ زمن بعيد ضحكةً حقيقيةً من صميم وجدانٍ تغمره الفرحة ويملأه الأمل...

رجعتْ آمال مبتسمة في سيارتها على طول ذلك الطريق، كادت أن تقع في غرامه، وجدتُ فيه بسّام ووجدتْ فيه أمان الوطن، ووجدتْ فيه

أيضا تسابيح القدر الجميل، فقرّرتْ لحظة النظر إلى عينيه نسيان هموم الماضي ومأساة الأمس الغائم، ففتحتْ صدرها ليوم جديد رائع البسمات، كم هو الحب جميل... لأنه يفتح لنا الآفاق الضيقة، ويزرعها ورودا جميلة، تبدّل كآبة مظهر الأشواك التي تحمل بذور شجوننا وآهاتنا، وتزرع على شفاهنا عاطفة أكثر من رائعة... فيصير الوجدان كتلك الدموع التي تُولَد في عين الإنسان العاشق، لتعيش على وجنته الحزينة، ثم لتنتهي على شفاهنا بضحكة مميزة من عمق أحزاننا، نواجه بها ما هو قادم بحلاوته ومرارته، بقسوته أو حنانه الفيّاض، بجنونه أو بتعقله...

استقبلتها جانين بابتسامة خبيثة، غريبة جدا هذه المرة، ثم دخلتا معا إلى مكتب الأعمال الموجود على الجهة اليمنى لرواق ذلك البيت الواسع.

دفعتها لتجلس بقوة على الأريكة المقابلة، كانت آمال تبتسم لا تدري ما الذي يحصل لها تماما، ولكنها أصبحتْ في حالة كبيرة من الخوف حيث أحسّت بتغيير نظراتهم... ثم تقابلها جانين هنالك تحدق فيها بنظرة مليئة بالشر، ظهرتْ أخيرا على حقيقتها، فحاولتْ آمال تجاهل الأمر وهي تسألها ما الذي حصل، ليدخلَ برنار موشيه فجأة وهو يسأل آمال بطريقة تهكمية عن حال مراد، فتنهضُ مفزوعة لا تدري ما طبيعة سؤاله بالضبط، ولكنها انبهرتْ عندما شاهدته يرتدي ذلك المعطف الأسود الطويل الذي عُلِّقَ في غرفتها ذات ليلة خلال إقامتها بالفندق، وحينها أدركتْ أن القدر لم يرضَ غيرها ضحية للموساد، والتي تأكدتْ اليوم أنها المسؤولة الأولى عن كل آلامها ومتاعبها هنا في سويسرا.

اكتشف أعضاء الموساد بأنها كانت تعمل لصالح الفلسطينيين، لأنها اِلتقت سرا بالضابط الفلسطيني ذلك اليوم دون علمهم، وهو ما أكّد لهم أنها قد اخترقت الشبكة لأجل قضية موطنها، فعُذِّبَتْ أشد عذاب على أيديهم، إذ أنها حُجزت أربع ليالٍ في مكانٍ شبه رطب، وكأنه حمام قديم للسباحة، فأُصيبت بمرض تنفسي لضيق المكان، وكذا الفطريات التي تملؤه والجراثيم الهوائية التي تغطيه من كل جانب...

في المقابل تأخرت المخابرات الفلسطينية في ردة فعلها حيث كانت لها إستراتيجيتها الخاصة في استرجاعها، فتمَّ اختطاف راحاب كاستيل في اليوم الثالث لاعتقال آمال.

فقدَ قادة الموساد صوابهم لأن راحاب يهُمّهم أمرها كثيرا، خاصة والعلاقة العاطفية الحميمة التي كانت تُعَّلِقُ برنار بها، لذلك قرّروا تأجيل الحكم بشأن آمال والتفاهم مع الفلسطينيين...

تم اتفاقهم أخيرا على تبادل الأسرى، آمال مقابل اثنين من أشباه العملاء المعتقلين لدى المخابرات الفلسطينية ووقع اختيارهم على جزيرة قبرص كمكان لإتمام صفقتهم...

لم يكن هنالك من خيار أمامهم سوى القبول، أما آمال فلَمْ تصدق ما قيل لها بأنها حرّة من ليلة الغد، خاصة عندما أكدّتْ ذلك من الضابط مراد شخصيا عبر الهاتف، كما ضمنتْ الموساد سلامة راحاب بنفس الطريقة...

حلَّت طائرات العال الإسرائيلية ضيفة على جزيرة قبرص، وفي المقابل طائرتين فلسطينيتين على متنهما البعض من الشخصيات المرموقة في السياسة الفلسطينية...

لعب يومها الضابط مراد دورا مهّما للغاية في تحسين معنويات آمال بعد استرجاعها، حيث تأثرتْ جدا لما حصل لها...

وقف القدر صامتا بين موقفين من الصعوبة والتناقض، هنا... آمال بين أولئك الرجال البواسل، ذوي الألباب السياسية والثورية، الذين استقبلوها بكل فخر لتحسّ أنها وإن فقدتْ ذلك الحب القديم الذي لم تعثرْ عليه، فإنها بلغتْ قمّة في أفق الثورة التي تفاخر به الأمم والشعوب تاريخ العصور، وهنالك في المقابل شيء آخر... موقف سهى الذابلة بين صفوف اليهود، ظهرتْ خائنة، بائسة وقد تجرعتْ الكثير من مرارة اليأس، عندما رأت أن آمال اُستقبِلت استقبال الأبطال والزعماء القوميين، فلم يكن أمامها سوى نهاية حتمية اسمها الانتحار، أحسّتْ كثيرا بحقارتها... امرأة وضيعة خانتْ حب الأرض وحب الوطن وخانتْ حتى أصولها العربية، فانسلختْ عن مبادئ أصالتها مقابل حب دنيء، لَمْ تجنِ من ورائه سوى المشكلات، فحكمتْ على نفسها أخيرا بالانتحار... وضعتْ حدا لحياتها بنفسها بعدما سجَّلها التاريخ في دفاتر كراهية العروبة لأشهر جاسوسة عربية للموساد على مرّ الأيام...

بعد مرور قرابة السنة... صبيحة يوم الثلاثاء، في صالون واحد من أجمل بيوت رأس بيروت العريقة، كانت آمال جالسة، ترتدي قميص نومها الأبيض وشعرها يلقي خصلاته السوداء الجميلة على الجزء العلوي من كتفيها، تنظر

إلى ذلك التلفزيون ثم تبتسم، وكأنها تشاهد كوميديا معينة ترَّوِح بها عن نفسها بعض الشيء، ثم ترفع عينيها الجميلتين في ساعة الحائط تلك وكأنها تنتظر أحدا ما، تأتي الخادمة أو كما كانت تقول لها"مديرة المنزل" لتضع أمامها فطور الصباح كاملا ثم تنصرف مبتسمة...

طَرَقٌ على الباب،تنهض آمال بسرعة لتَفَقُدِ جمالها في المرآة المقابلة، ثم تَهُمُّ نحو الباب لتفتحه،

مراد يملأ ما وراء الباب بِطَلَّتِه الجميلة، تبتسم في وجهه، فيمسك يدها مع إلقاء التحية...

يجلسان سويا لتناول الفطور ويتبادلان الضحكة المميّزة، والنظرة المعبّرة، وربما حتى الكلمات الشيّقة، كانت تبدو وكأنها في قصة حب جديدة، حقيقية، بعيدة عن معبد الانتظار، وليالي الانتظار التي ملأتها الأوهام والحسرة...

ودَّعها بعد ساعتين أو أكثر على موعد آخر، لقاء على العشاء في المطعم العتيق، في واحد من أجمل الدروب الكلاسيكية لمدينة بيروت الأنيقة.

حلّت ظلال المساء الوارفة، فنزلتْ آمال من شقتها تلك نحو بوتيك الملابس المقابل، كانتْ تربطها علاقة طيّبة المظهر بذلك الفتى، صاحب العشرين سنة والذي يعمل حديثا مع صاحب المحل، حيث يتكلف بالزبونات اللواتي يأخذن وقتا كافيا، لاختيار ملابس تليق بأناقة المرأة وجمالها الأنثوي.

تداعبا بضحكات تملؤها الأخوة والمحبة، ثم داهمها فجأة بالسؤال عن مناسبة اقتناء هذا الفستان الجديد، كانت طريقة تساؤله غريبة نوعا ما، حيث ارتأت أنه قد تجاوز حدوده قليلا، ولكنه كان ذكيا فرجع في حينها إلى ابتسامته المصطنعة لئلا تدرك آمال شيء، فاستغربتْ لحاله ولضيق وقتها لم تتمكن حتى من تجريب ذلك الفستان على جسدها الجميل، فأخذته مسرعة وانصرفتْ...

دخلت آمال منزلها وإذا بها تسمع صوتا من الأنين، وكأنه صوت مديرة البيت، دخلتْ عليها تسترق الخطوات، فوجدتها تبكي بكاء عميقا، فاحتضنتها وقامت بمواساتها... اعترفت لها بأنها الذكرى الخامسة لوفاة حبيبها الذي لم يبق سوى أسبوع من الزمن على ارتباطهما، فاختطفته الموت الجشعة من بين أحضانها وتركتها حائرة في أمرها، يائسة من البحث عن حب صادق آخر...

تدفقتْ طيبة تلك المرأة الفلسطينية وقرّرتْ إخراج الفتاة من أزمتها، أحسّتْ بجراحها جيدا لأنها لا زالت تعاني نفس الظروف، فدعتها للخروج معها سهرة هذا المساء برفقة الضابط مراد، لكنّها تحجّجتْ كثيرا لئلا تذهب معهما، فلم تُرِدْ آمال أن تتركها بائسة، يائسة أمام أحزانها، فقالت لها بأنها سوف تهديها الفستان الوردي الجديد، لحضور الحفلة وبعد كلام كثير أقنعتها، فتعانقتا وابتسمتا كإمراتين حزينتين من عالم الشجون وقرّرتا الذهاب معا...

ساعدتها كثيرا في طريقة وضع الماكياج والإكسسوارات... ثم رنَّ هاتف الصالون فجأة، فردَّت عليه مسرعة وطلبت منه أن لا يحضر سيارته، فأجابها بطريقة مداعبته الجميلة مشترطا أن يكون هو السائق، باعتباره أحسن منها بكثير في مهارات القيادة، فانفجرتْ ضحكا وهي تجيبه بأنها لن تجد سائقا أكثر أناقة

ووسامة منه، واخبرها بأنه سوف يمحو هذه الليلة برستيج الضباط والإطارات العسكرية، لأنه يريد حقا نسيان متاعب عمله...

مات مراد وهو يحاول تشغيل سيارة آمال وكذا مديرة منزلها التي كانت بجانب السيارة، التي لغَّمَتها عيون الموساد المزروعة في قلب بيروت، وأوَّلهم ذلك الفتى الذي كان يشتغل ببوتيك الملابس، أرسلتْها بمجرد ما وصل ذلك الرجل الأنيق لئلا يصعد إليها ولتخبره بأنها سوف تنزل بعد دقائق، فكان قدَرها أن تموت مكانها، ككثير من الناس الذين ليس من حقهم أبدا أن يفرحوا ولو مرة واحدة في العمر...

اختبأت آمال في سلّم العمارة الفوقي، حيث كادتْ تموت خوفا لما أصابها، خاصة وهي تراقبُ أولئك الذين قاموا بتفتيش بيتها للتأكد من عدم وجود احد، بحثوا عن الخادمة كثيرا ولكنهم اعتقدوا بأنها هربتْ منهم، لأن الجثة التي حرقتها نيران السيارة المفخخة تشوّهتْ وهي التي ترتدي الفستان الوردي، فعزمتْ الموساد أن آمال هي التي ُقتلَت إلى جانب ذلك الرجل العظيم، الذي منح نفسه وضحىّ بشبابه في سبيل وطنه، وبقي البحث عن الخادمة في نظرهم مستمرا، خوفا منهم أن تكون آمال قد سربتْ لها بعض الأفكار عن حقيقة عملهم.

أصبحت آمال كالتائهة، لم يكن في مقدورها حتى توديع مراد ولو للمرة الأخيرة، فقررّت الذهاب بعيدا نحو مدينة صيدا، التي كان من المحتمل حسب بحثها أن بسّام قد استشهد فيها خلال واحدة من مهامه بالجنوب.

في واحدة من ديار المسنين هنالك، اختارتْ أن تقضي بقية أيام حياتها كسيدة بائسة يقارب عمرها الخمسين سنة، وهي تعاني من مرض مزمن شبيه بالسل في أعْراضِه لما شهدته من عذاب ومعاناة...

كانت نهايتها في قمة التراجيدية، فلَمْ يكن من العدل أنها تفقد الحب وتفقد نفسها أيضا، ولا تجد وطنا كانت تبحث عنه، فآمال البحث عن هذا الوطن ضيّقة للغاية... لأنها تحتاج عقولا كبيرة تغيّر كروية الأرض...؟ وتغيّر منحى التاريخ...؟

أصبحتْ تعيش في عزلة عن الآخرين، اشتاقتْ إلى بسّام وإلى الرجل الآخر، الذي كادتْ أن تحتمي به، وتغطي كتفها العارية بمعطفه أمام هبوب ريح عنيفة وأمطار عاتية... فانقطع أملها في البحث عن الحب وفي البحث عن الوطن وأضحى كل شيء من حولها فراغا ضائعا...كانت من حين لآخر تذهبُ متخفية لزيارة ضريحها الذي أُقِيمَ وهي لا زالتْ على قيد الحياة...؟ فخرجتْ في إحدى الأمسيات تقلبُ أوراق الماضي والحاضر المجهول، رجل علمّته خلال عشقها له حب الوطن، وأقنعته بضرورة الكفاح، فدافعتْ عن أنوثة بلادها التي كسبتْ شهيدا آخرا من عشاقها الكثيرين، ونسِيَتْ أن تنصف أنوثتها التي اغتيلتْ من دون معنى...؟

وضعتْ إكليل الزهور على قبرها الغريب...؟ وعانقتْ روحها أرواح الراقدين في ظل الأفق، وحينها أدركتْ أن صفاء الحب الخالد يبقى كخلود الياسمين، في جماله وطهارته رغم كل الصعوبات والأزمنة الخانقة.

خلود الياسمين

في حدائق الياسمين، حيث تحيا وتموت ورود الياسمين الجميلة، وحيث تحيا وتموت الشمس في الأفق، أبحث عنك... أبحث عنك في كل وردة ترقد جانب ذلك النهر، أبحث عنك في كل ياسمينة عطرها يجول في غسق الليل، فأجد لك في كل وردة معنى، وفي كل نسمة عطر معنى...

وجدتُ معانيك دون أن أجدك بعينك، كما أنني وجدت بين الملايين من ورود الياسمين، ألف أغنية آه وعتاب، وقد كانت تتسابق نحوي لتعذبني وتعاتبني وتبعث لي آلاف التحيات... تبعث لي آلاف النغمات الحزينة التي ترقد على خصلات شمس الأصيل الذهبية، تبعث لي سيمفونية مأساة ولوعة، تبعث لي رسالة شجون من قلب يعاني الفراق ومرارته، في كل كلمة فيها، كنت أراها تحمل ذاك الهذيان الوهمي والدموع الوهمية، التي تنهمر عندما يجتاح الحزن كيانَك الهادئ وكانت تقول لي: -" أنا شمعة أطفأها القدر" وتردد ذلك كثيرا...

كانت تلومني على غيابي الطويل وغضبي العنيف، كانت كلها تحاول استرجاعي، كانت كلها تركض خلف آلاف الكلمات، آه كم كان عتابها عسيرا...

كانت تنبهني لأخطائي وهفواتي، كانت تجتاحني كسكون الليل، كانت ضائعة تبحث عن الأمل وتحاول بعث معانيه الجديدة...

أدركُ انّك في كل أمسية تراسلني بأغنية عتاب،تقبّل قلبي الحزين، كما يقبّل ظلام الليل خيوط الفجر الأولى، محاولا بعث حياة جديدة لميلاد يوم جديد...

أدركُ انك تتنفس اليأس والغياب، كما يتنفس الفجر في بداية كل يوم...

حياتك... حياتك الآن من بعدي أصبحت كالخريف أصبحت حزينة على فراق شبابها، أصبحت تشبه الطيور المهاجرة،التي تبكي على غصون أَلِفتْ عناقها ثلاثة فصول طوال، أصبحتْ دروبها ملتوية، تكابد هبوط الأودية وصعود الجبال،أصبحتْ تائهة، متيمة في هيام وحرمان،كصحراء عطشى قاحلة،من دموع المطر منذ أعوام، وأصابها الضياع كرسائل في زمن الحب والحرب...

أصبحت كنافذة الكلمات، كنغمة جميلة ركبّتها الآهات،كعيون بريئة تملؤها العَبرَات،أو كشاعر تحييه قصيدة وتقتله من بعدها الكتابات...

أدرك أن أيامك أصبحت دون معنى، كورود الياسمين التي حُرِقَت، أصبحتْ تخاف مما سوف يجلبه القدر،بل أصبحتْ كئيبة يملؤها الضجر كمدينة الأحزان...

أدركُ أن الهوى قد فعل بك ما فعل،إلى حدّ الهذيان، إلى درجة الانتحار،أدركُ انك تصارع نفسك تحارب ذاتك بين نار ونار... سلاسل أفكارك أصبحتْ كنقاط حذف متتابعة، لا تدرك ما الذي سوف يتلوها، أدركُ أن الحب معك قد أصبح غلاّب وأن قسوتي ولّدتْ فيك حنينا شبيها بالعذاب...

وجدانكَ أصبح عواصفا من كره،أو شوق الغريب إلى من لم يَزُرْه،أدركُ أنني قد فرضتُ عليك إقامة جبرية، وكبلتك بسلاسل سيطرة حديدية، ومنحتك الإقامة في زنزانة المنفى...أدركُ أنّني كنتُ ظالمة معك،جلاّدة لأفكارك،سجّانة لعواطفك، ووضعتكَ بين نارين اثنتين:الحب والكراهية.

أدركُ أنني في كل موسم،أغلق عليك ألف باب، ومن دون خطيئة أعرضكَ للعقاب، لذلك فأنتَ اليوم تواجهني بكل معاني العتاب...

كانت أغانيكَ تأتيني كريح هبَّتْ من بلاد الأحبة، كمشتاق راكع قادم من ديار الغربة، كقلب دامع أرهقه السهر، ككآبة السماء وحُزنها عند المطر...

كزهور ليلية أرهقها ضياء النهار، كالقمر الذي يعاني غيوم ليلة عتماء،كشاعر يكتبُ قصيدته وهو على وشك الانهيار، أو كأسماء آلهة قد محاها الاندثار...

أنا الوحيدة يا صديقي التي يُمكنها كتابة هذه الرسائل، رسائل عن خلود الياسمين،لأنني المسؤولة الأولى عن رجل مهزوم، ولأنّني الملكة الأولى لإمبراطورية الأحزان، ومملكة الشجون... ولأنني دون أن أخفي عنك لا أدركُ من أكون؟...

ورود الياسمين كلها تحدق في جفوني، أرهقني السهر، وورود الياسمين كلها تعاتبني، لأنني أدخلتكَ مدينة الشمس والحب زائرا،ثم حبستكَ مقيما في مملكة الأحزان،لأنّني امرأة تجردتْ من كيان الخوف وأثواب القدر...بل لأنني امرأة لا تؤمن بتسابيح القدر،أو لأنّني أصبحتُ كاهنة في معبد الأحزان...؟

لأنني أنثى لا تؤمن بقداسة عشتروت،لا تؤمن بالعفو عن الخطأ،فهو خصوصية في عالم الملكوت.

أنا هي الأنثى قامتْ بخنقك حتى الموت،ثم تحييكَ في أوراقها،ثم تكتب اسمكَ لتموت...

ما يُضعِفني أنّك لا زلتَ تقرأ قصائدي،و تحبُ مقاطعي، وتبقى وفيا لسحر مطالعي...أ وَ بعدَ كل هذا تقرأ قصائدي...؟

أيها الرجل المهزوم في زمن العولمة العاطفية... أيها المتيم المؤمن بكلماتي الخرافية، أيّها الكئيب الغريق، لقد هزمتني وانتصرتَ...هزمتني في

مملكتي:مملكة الأحزان... لقد هزمتني بالإيمان، الإيمان بالقدر والحب وخلود الياسمين...

لأنك صنعتَ من الياسمين التي أحرقتُها خلودا أبديا وبه دخلتَ قصائدي، لأنك طردتني من مملكتي وأصبحتَ أنت الملك،في مملكة الأحزان،لأنّني حين سلبتُ منك وسام الحب، أخذتَ كل قلائدي، لأنك أصبحت على العرش وأصبحت سيّدي...

ورود الياسمين كلها جلستْ إلى جانبكَ...لأنني حين ظلمتُك كنتَ عادلا، وحين نفيتُك كنت قابلا،لذلك اختارتكَ جماهير الياسمين، رغم أنني جعلتكَ من دون معنى، لأن جمال الياسمين لا يفنى، فأصبحتَ سيدا خالدا على الياسمين الذي حُرق والذي لم يُحرق... وأصبحتَ قائدا على موجات بحر لا تغرق.

وانتصرتَ وأصبحتَ الملك،على مملكة الأحزان وطوق الياسمين...

سيّدي لقد كان ذكاؤك أسطوريا، وكنت مؤمنا بأنّ مصيري الندم، إنّ للحب الخلود وللقسوة العدم...

لذلك أقدّم اعتذاري،لأنني لم أفكرْ بعقلي بل فكرتُ بأنوثتي، ولكن هل أعجبتكَ مدينة الأحزان...؟ لأنها موطن الشعراء وارض الرومانسية، حصونها قصائد عربية، جدرانها حزمة من أبيات شعرية، سماؤها رمادية تبكي على وريقات الياسمين ، حدائقها جميلة أسطورية،و مِلكَتُها خرافية معادية للقدر...

لا أفكر اليوم في الانتقام لنفسي، فرجولتكَ كانت أقوى من أنوثتي، ولأنك أصبحتَ الملك... ليس بمعنى الخوف من الهزيمة ولكنّه الخوف من الوحدة، هجرتني كل ورود الياسمين وأصبحتْ معك وخاصمتني ريشتي وغادرتني الكلمات والقصائد، لكن لا تنكرْ أن حُكمي عليك بالمنفى قد علّمكَ الصبر الجميل،علّمكَ الكثير من معاني الهوى عّلمكَ الشوق والجوى، وصنع منك ملكا اكتبُ له القصائد...

تتحدثُ معك الآن امرأة لا تهّمها حسابات الزمن، لأنها وضعتْ لنفسها فصولا وأياما جديدة. وحسابا زمنيا يختلف عن عالم البشر...؟ حسابا زمنيا تحكمُه أوقات الفرحة والضجر،يلائم مدينة الأحزان كواكبه كلّها حزينة وممطرة ودروبه صعبة كسبل الحياة...

أ ترفض أن تدور عليك عجلة هذا الزمن...؟ كيف لا وقد زدتَ جمالكَ وسامة بَكآبةِ عالمي... أصبحتَ أسطورة فيه، تحاول إشعال النار في طبيعتِهِ

الهادئة،أنا اعترفُ أنني أميرة من ورق،أحلامي ورقية، أفكاري ورقية وأطباعي ورقية، لكن نارَكَ لن تهزمني أيها الملك، لأنّني بكل بساطة أسطورة عشق وشعر لا تهزم، قوية بجيوش حروفها وعظيمة بكبرياء أفكارها...

الآن سَكَنَ الليل ورقدتْ الحياة في مدينتي وبدأتْ حساباتنا تستعد...بدأتُ أفكرُ في مصيركَ الأزلي ومصيري أنا إلى الأبد...؟ انظر كيف هي لازوردية ورود الياسمين، أصبحتْ الآن تقترب من مجلسنا ولكنّها حزينة خائفة مما هو قادم...

وريقاتها تحدق في أنوثتي الخرافية، أنا أحدقُ فيك ملكا جديدا وأنتَ تحدقُ في أحجار المدينة وحصونها الكلاسيكية:

-"جماهير الياسمين الرائعة... في سكون هذا الليل سوف تتحكم الأيام في قدَر مدينتنا، تصنعُ لها مصيرا جديدا، ترتبُ أقمارها بُدُورا وأهِلّة وتعطيكَ قُبْلة الأبدية والأزل...

اقتربي منّا يا ورود الياسمين فأنتِ التي تعيدينني ملكة في مملكة الأحزان، سوف تعيدين لي عرش الأساطير الخالدة،سوف تمسحين دموع الكآبة

والشجون، سوف تهتفين لي بكل صدق لأتوَّجَ أميرة على عرش الحب والأحزان، سوف تركضين معي خلف مئات القصائد الحزينة، سوف نمضي معا بكل سلام إلى عالم الأحزان...

سيّدي... من عرش المُلْكِ أُعلنُكَ الآن أسطورة في عالم الحب والإخلاص، من قلب هزيمتي أهنئك بالانتصار، فأهم ما فيك انك كسرتَ حواجزي،

وأصبحتَ شيئا من قصائدي العربية أو واقعا من قصصي الخرافية... رغما عنّي شكلتَ من حروف أفكاري اسما جميلا خالدا لكَ بين ورود الياسمين وأصبح مَصيركَ مرتبطا بمصيرها،فأنتَ خلود الياسمين بعَيْنِه، ووفاء المحبين بعينه... فهنيئا لك بخلود الياسمين وتتويجك ملكا على أراضيها البهية... أصبحتَ الآن حرا بعيدا، أصبحتَ طليقا كنسيم يجولُ في أحضان الأفق، في مرتبة الشاعر الذي لا يموتُ ولا يُقهر، أسطورة ياسمين خالدة تتداولها الأيام جيلا بعد جيل... كرسول بين العاشقين...

شكرا لك لأنني أخذتُ منك حكمة حياة يَصْعبُ تلقينها ولكنني في المقابل علّمتكَ معاني الصبر الجميل، والحب والوفاء، فوراء كل رجل عظيم امرأة ووراء كل أميرة مهزومة رجل...؟"

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	7
كلمة من القلب	9
مدينة الأحزان	13
إلى معبد الانتظار	16
وجع من ليالي الانتظار	20
أتعبتني الأشواق	23
أحلامي الورقية	26
وداعا يا فلسطين	31
الطريق إلى عكا	33
بيت شبيه بالمتحف	35
ما تركه لي أبي...	37
جزء من تاريخ فلسطين	37

عكا...مدينة هزمت نابليون	39
الصمت عار	46
مقيمٌ في فؤادي أيها الوجع...	56
رحلتي إلى جنيف	58
في مطار عكا	62
من مدائن القمر	66
صاحب المعطف	68
بدايتي	84
عربيات إسرائيل	94
لقاء الرعشة	100
نهايتي	119
خلود الياسمين	128